
ساحر الكتب
أحمد خالد توفيق
أفراح المقبرة



أفراح المقبرة

أحمد خالد توفيق

أفراح المقبرة









لمزيد من المعلومات عن الكرمة: facebook.com/alkarmabooks

توفيق، أحمد خالد.
أفراح المقبرة / أحمد خالد توفيق ـ القاهرة: الكرمة للنشر، ٢٠١٨.
٢٤٠ ص؛ ٢٠ سم.
١ـ القصص العربية القصيرة.
أ ـ العنوان.
رقم الإيداع بدار الكتب المصرية: ١٠٣٨٤ / ٢٠١٨

٢ ٤ ٦ ٨ ١ ٠ ٩ ٧ ٥ ٣ ١

تصميم الغلاف: أحمد عاطف مجاهد



المحتويات

نيولوجيزم.. ٧

موعدنا الليلة....................................... ١٧

سفاح المستنقعات.................................. ٢٧

الأخرى ٦٥

عشر علامات...................................... ٧٥

نادي أعداء مصاصي الدماء ١٠٣

تنصُّت... ١٦١

هشام يخفي سرًّا................................... ١٩١

بعد الجلسة... ٢٢٩



نيولوجيزم

«عرفت من أحد المهتمين بهذه الأمور، أن هناك حالة نفسية غريبة يستخدم فيها المريض لغة أخرى لا يعرفها.. لغة لم يتعلَّمها لكنه يجيدها فجأة. وقيل إنه مس الجن. حالة اسمها «زينوجلوسيا»، وفيها يتكلم الشخص بلُغة أجنبية لم يتعلم حرفًا منها من قبل. فجأة تجد ابنك يتكلم الألمانية أو البرتغالية بطلاقة. هناك أمثلة دينية لهذا، والغربيون يطلقون عليها اسم «الكلام بالألسنة».. والهندوس يعتبرونها دليلًا على التناسخ.. ربما كنت أنت من المتكلمين بلغة «الزولو» في حياة سابقة، وفجأة تجد نفسك تجيد لغة «الزولو»».



«بيسكادوس إيلي رواتا إيلي.. نافارك دوهار.. شليش دوهار.. سربنت دوهار.. دوتشيب أراس فيرو آلمي بهستا تارجوك دونا.. أفوساي هانيلوب شلومان بارا.. ناسيب أجوسوب بالاك.. سيسا هاتور.. أجوساك.. غير لاف ساجا أريل سوهاك ساجا.. هنيلوب لوا».

معذرة.. لا أستطيع التحكم في تلك النوبات كما تعلم. لا.. ليس حتميًّا أن يقترن الكلام الغريب بالكتابة الغريبة.. أحيانًا ينفصلان.. أحيانًا أكتب سطورًا كاملة بهذه اللغة، لكني أتكلم بلسان عربي فصيح، وقد يحدث العكس. منذ أسبوع جلست مع خطيبتي وفتحت فمي، فإذا بي أُلقي عبارات طويلة بهذه اللغة العجيبة، وكنت أجدها منطقية جدًّا، ولم أفهم سبب حيرتها، ثم تناولتُ القلم وكتبتُ على الورق:

ـ هل أنا أستعمل لغة غريبة؟

فهزَّت رأسها في رعب أن نعم، فعدت أكتب:

ـ لا أعرف ما دهاني.. يقيني أنني أُعبر عن نفسي بفصاحة لكنكِ لا تفهمين.

فهزت رأسها من جديد في رفض، وراحت تراقب ما أكتبه.

بدأت هذه الظاهرة تتفاقم مع الوقت. راحت اللحظات التي يتغير فيها كلامي تتزايد مع الوقت، وكانت تُسبب قلقًا فعليًّا لمن يتعامل معي.

عرفت من أحد المهتمين بهذه الأمور، أن هناك حالة نفسية غريبة يستخدم فيها المريض لغة أخرى لا يعرفها.. لغة لم يتعلّمها لكنه يجيدها فجأة. وقيل إنه مس الجن. حالة اسمها «زينوجلوسيا»، وفيها يتكلم الشخص بلُغة أجنبية لم يتعلم حرفًا منها من قبل. فجأة تجد ابنك يتكلم الألمانية أو البرتغالية بطلاقة. هناك أمثلة دينية لهذا، والغربيون يطلقون عليها اسم «الكلام بالألسنة».. والهندوس يعتبرونها دليلًا على التناسخ.. ربما كنت أنت من المتكلمين بلغة «الزولو» في حياة سابقة، وفجأة تجد نفسك تجيد لغة «الزولو».

شعرت بقلق شديد. جرَّبت أن أستخدم هذه اللغة مع أشخاص آخرين من جنسيات مختلفة.. فلم يفهم أحد ما أقول.

رحت أحاول كتابة تلك المقاطع التي أتلفظ بها.. لربما استطعت التوصل إلى شيء كما يفعلون في عمليات فك الشفرة.. طريقة فك الشفرة في الحشرة الذهبية قصة «إدجار آلان بو».. «أجوساك» قد تكون فعلًا شبيهًا بـ«يكون» في الإنجليزية.. لا وجود لأفعال الكينونة في الجمل الخبرية في العربية.. أنا أكون رجلًا.. لا شيء كهذا.. «نافارك دوهار.. شليش دوهار.. سربنت دوهار».. قد يوحي هذا بألوان.. «دوهار ثوب» قد يكون «نافارك أو شليش أو سربنت».

أذكر في طفولتي أنني كنت أمر جوار بناية دبلوماسية، وخرج شاب مندفعًا، وحيًّا الحارس صائحًا بصوت جهوري:

ـ «سولُّو كيزم!».

وقد ظل الفضول يخنقني طيلة حياتي لمعرفة معني «سولُّو كيزم» هذه.. طبعًا هذا يقترب من الاستحالة ما لم تقف في مدخل بناية الأمم المتحدة مرددًا «سولُّو كيزم». في فيلم «رجل من الداخل» يستعمل لصوص المصرف لغة غريبة، فيقوم رجال الشرطة بإذاعة التسجيل عبر مكبرات الصوت عسى أن يميز الكلمات أحد المارة، وبالفعل يأتي لهم رجل ليخبرهم أن هذه اللغة هي الألبانية.

قمت بتسجيل فيلم لنفسي وأنا أتكلم كلامًا منطقيًّا.. المشكلة هي أنه بلغة لا يعرفها أحد. في عصر الإنترنت يسهل أن تعرف بأي لغة يدور الكلام.

هكذا وضعت الفيلم على يوتيوب، وطلبت ممن يعرف بأي لغة أتكلم أن يبلغني بها.

«أجوساك.. غير لاف شرايب تال.. هنيلوب سلسيا.. أرفاناس جاريب».. لقد عدت أتكلم تلك اللغة.. أنا آسف.

اسمي شاكر.. مهندس كمبيوتر.. في السادسة والعشرين من عمري.. أعيش وحيدًا على قدر ما أذكر. كانت هناك خالة تُعنى بي، ثم تُوفِّيت منذ أعوام طوال.

اليوم كنت أحلق ذقني في الحمَّام عندما لاحظت شيئًا مُقلقًا، هناك تحت زاوية فكِّي بالضبط كُرية صغيرة ذات جدار عظمي.. لم تكن موجودة هنا من قبل.. لاحظت كذلك أنها غير مكسوة بالشعر. عندما



نزعت ثيابي لأستحم لاحظت أن هناك كُرية عظمية مماثلة جوار رُكبتي اليمنى.. هذه أشياء جديدة...

السرطان! لا أعرف ما هو بالضبط، فأنا غير ذي ثقافة طبية، لكن الكلمة ظلت مشتعلة بضوء أحمر في سماء الغرفة، فلم أستطع النوم. هرعت إلى أقرب عيادة جراح.. تفحص ما تكلمت عنه وبدا في حيرة، ثم طلب أن أُجري فحصًا بالأشعة على الكُرتين العظميتين.

لما عدت إليه بالأشعة تفحَّصها ثم أشار إلى كُرتين تبدوان كالفقاعتين في الصور، وقال:

ـ هناك أسنان في داخل التجويف!

لما بدا عليَّ الذعر قال لي مفسرًا إن هناك أورامًا عديدة تحوي أسنانًا وعظمًا وشعرًا، اسمها «تيراتوما»، هذه أشياء تحدث، والحل الوحيد هو الاستئصال.

ـ ومتى؟

ـ متى صرت متأهبًا.. ولا تقلق من السرطان.. هذه ليست حالة سرطانية.

قلت له:

ـ «ميهاركاه.. أينوخ.. شالماه هتروت دابين بلوف.. أجوساك.. جاريب».

نظر إليَّ في دهشة، فغادرت المكان بسرعة.

الطبيب النفسي الذي طلبت رأيه قال لي إن هناك حالات من الهستيريا تتحدث لغة غريبة كهذه، كما أن مرضى «السكيزوفرنيا»

يخلقون لغة خاصة بهم.. هذا ما نُطلق عليه «النيولوجيزم». معنى هذا الكلام أنني هستيري أو مجنون.

أنا وحدي في البيت...

أنظر في المرآة.. هناك كُرية عظمية أخرى فوق الحاجب. الأمر يتحرك بسرعة مذهلة. الطبيب الجراح كذلك قال لي إن هناك أورامًا عديدة تُصيب الجسم بهذه الكثافة وتنتشر.. هناك مرض شنيع يجتاح الجسم ليغطيه، ويجعل المرء كوحش من قصص الخيال العلمي، وهو مرض اسمه «neurofibromatosis». سوف أتحول إلى مسخ تتخاطفه كليات الطب، ولن أعرف السبب أبدًا. لكن ماذا عن ورطة اللغة؟

جاءني الرد بعد أيام من رجل تركي اسمه «وحدت صافي».. لقد رد عليَّ في صفحة يوتيوب، وتم الاتصال بيننا على سكايب.. تكلمنا بالإنجليزية طبعًا.

ـ جدتي كانت تستخدم لغتك هذه أحيانًا.. لا أعرف ما تقول الكلمات.. لكنك تعرف كُنه هذه اللغة.

سألته:

ـ وما كُنه هذه اللغة؟

ـ أنت تعرف! كانوا يأتون إلينا أحيانًا.. كُريات تخرج من عظامهم وعظام أشداقهم.. وكانت تفوح منهم رائحة الكافور.. تشمها وهم على بُعد ميلين!

ثم أنهى الحوار مُرددًا آيات قرآنية عديدة.. وقطع الاتصال!

أغلقت جهاز الكمبيوتر، ونهضت مغادرًا البيت.

قالت لي خطيبتي عندما التقينا:

ـ غريب أمر هذه الكُريات التي تخرج من جبهتك وفكِّك.. إنها تتزايد!

ثم تشممت بأنفها، وهتفت:

ـ رائحة الكافور هذه.. هل تستعمله كدهان ليُقلل الألم؟

قلت لها في عصبية:

ـ «لوفيف تاجيالا بيريس.. نوهارك.. شورشور.. ناسكارديا لاتوف بيلي سانكسوس.. أبراهادير كا.. ناسوس.. شيفتا ناسوس.. نافارك دوهار.. شليش دوهار.. سربنت دوهار».

سوف أعرف كيف أفك هذه الشفرة.. سوف أجد اللغة. أجهزة الكمبيوتر قادرة على فك رموز أي لغة أرضية.

أنا أتبدل لا شك في هذا.. المرآة تقول هذا بوضوح.. هنا وسط هذه الدائرة من الحيرة خطرت لي فكرة: هناك تلك المفكرة التي قالوا إن أبي تركها لي وظلت في خزانة ثيابه.. المفكرة التي لم أستطع قراءة حرف منها، لأنها كُتبت بكلمات مثل: «سكريونا.. باكار تشيكوب.. ناهارا.. فيزوس لا».

حسبت أن هذه هلوسة، لكن ماذا لو عدت إليها الآن؟

هرعت إلى خزانة الثياب، وأخرجت المُفكرة القديمة. لا شك أنها تضوع برائحة الكافور. تأملت الكلمات.. لقد انفتحت طاقة السر.. يمكنني أن أقرأها الآن كأنني وضعت سماعتَي الترجمة الفورية في مؤتمر:

«بُني العزيز، لو كان بوسعك أن تقرأ هذه الكلمات فأنت قد نضجت بما يكفي لتفهم باقي الحقائق. إن



جسدك سيخبرك بما عليك عمله.. نحن نختلف عنهم..
فقط لا يظهر الفارق إلا بعد سن الخامسة والعشرين،
هذا يشبه داء الكلية المتحوصلة.. تولد به وتحمله في
خلاياك، لكنه لا يعلن عن نفسه إلا في سن متقدمة.
ولسوف يكون عليك يا بُني أن تبحث عن مكان آخر..
مكان مظلم رطب.. سيكون عليك أن تجد زوجة منا..
سيكون عليك أن تأكل كما نأكل.. سوف تنسى لغتهم..
وعندما يقولون إننا شياطين أو غيلان فلا تدع هذا يحطم
معنوياتك. نحن متميزون ومختلفون لهذا يكرهوننا».

كنت أرتجف. ألقيت بالمُفكرة جانبًا. أفهم ما هو مكتوب، لكني كذلك لا أفقه حرفًا من هذا الهذيان. ما أمر به مرض نفسي لا أكثر مع أورام لعينة في عظامي.. الأمر لا يزيد على ذلك. سأخبرك بما أنتويه: «مارتو أرام.. مارتو أرام.. أفساي هانيلوب شلومان بارا.. ناسيب أجو سوب بالاك.. سيسا هاتور.. أجو ساك... أرا!».. هل تفهمني؟



موعدنا الليلة

«اسم الرواية «موعدنا الليلة».. بالطبع لا يتحدث عن لقاء عاطفي، بل هو تهديد واضح لا شك فيه. عندما تقرأ لفظة «عشاء» في رواية رعب، فأنت لا تفكر في العشاء الذي نعرفه».



لأن الحياة رتيبة مملة وقاسية، فإننا نُلقي لأنفسنا بالطُّعم مرَّة تلو المرَّة.. هل تعرف قصة «البارون مونشهاوزن» الكذَّاب الألماني الذي صعد إلى الفضاء عن طريق قذف مغناطيس في الهواء، ومن ثَمَّ ترتفع السفينة الحديدية قليلًا، ثم يتلقف المغناطيس ويقذفه من جديد.. وهكذا؟

نحن نبحث عن ذريعة لبقائنا.. هذه الذرائع التي تُبقينا أحياء ساعة أخرى.. يومًا آخر.. عامًا آخر. قد تكون الذرائع طفلًا جميلًا أو قصة حب.. ربما تكون، في أقل صورة لها، كتابًا ننتظره في شغف.

الليلة فاز فايز بجائزته.

لقد وجد الكتاب الذي انتظره طويلًا، والذي فتش المكتبات كلها بحثًا عنه فلم يجده. اعتاد أن يدق أبواب المكتبات كأنه متسول يطلب لقمة عيش تُبقيه حيًّا يومًا آخر.. أريد ذريعتي يا أوغاد.. أريد مغناطيسي يا لصوص.

على الغلاف كانت صورة ذلك البيت المظلم الذي ينبعث منه



ضوء خافت مخيف، والظلام دامس، وهناك سماء مكفهرة مفزعة.. بينما البطل يتقدم وظهره لنا نحو أهوال لا نعرفها لكنها موجودة يقينًا.. وبخط بارز فضي برَّاق كُتب اسم المؤلف «جون كالوزي». اسم الرواية هو «موعدنا الليلة». أنت تعرف أن «جون كالوزي» أهم كاتب رعب معاصر بعد «ستيفن كنج» و«كليف باركر»، وتعرف أن أعماله لم تُترجم إلى العربية قَطُّ.. هذه أول رواية له تصدر باللغة العربية إذن.. وأي طباعة!

تأمَّل الغلاف في انبهار ثم دفع ثمنه.. كان قد شاهد فيلمًا سينمائيًّا عن إحدى قصص هذا المؤلف العبقري، وبعد هذا قرأ قصة قصيرة له بالإنجليزية فازداد انبهارًا.

من أين يأتي هؤلاء القوم بأفكارهم؟

لهذا عندما عرف أن دار نشر لبنانية تعتزم ترجمة أول رواية لـ«كالوزي» تحمَّس وراح يبحث في كل مكان. هل تعرف معنى هذا؟ معناه ليالٍ دافئة في الفراش.. أقداح من النسكافيه.. انتظار نهاية اليوم في شغف.. فهناك في الفراش يوجد المغناطيس الخاص به الذي سيرفعه إلى القمر.. الجزرة التي تجعله يتحمل يومًا آخر.

كان فايز، كما لا بد أنك خمنت، مهندس كمبيوتر فاته قطار الزواج.. يعيش وحده، لكنه ليس وحيدًا جدًّا.. الكتب تجعل حياته مزدحمة جدًّا، وعندما يدخل البيت يجد «توفيق الحكيم» و«تولستوي» و«نجيب محفوظ» و«كافكا» و«تشيكوف» و«جيمس جويس» ينتظرونه في قلق.. بصعوبة يمكنك أن تجد مكانًا تمشي



فيه.. الحقيقة أن هناك أيامًا كان يشتاق فيها إلى الوحدة! نعم.. الزحام شديد هنا.

كان الكتاب تسليته الوحيدة.. الشيء الوحيد الذي يعوضه عن الزوجة والولد والعلاقات العاطفية.

في القطار وهو عائد إلى بيته جلس جوار النافذة. كان قد حجز لنفسه في الدرجة الأولى حتى ينعم بالقراءة في ضوء صحي ومقعد مريح.. وضع ساقًا على ساق وبدأ يتأمل الغلاف.

العربة خالية إلا من رجل غافٍ في المقدمة قد غطى رأسه بالوسادة وارتفع غطيطه.

كان فايز يعرف أن «كالوزي» مؤلف غريب الأطوار فعلًا.. لا يُجري أي حوارات صحفية، ولا يعرف أحد أي شيء عن حياته الشخصية، فقط العبارة الصادقة التي قالها هي: «كلما اقترب الناس من المؤلف كإنسان قلَّ تصديقهم له كروائي. على الرواية أن تبدو كأنها وُجدت منذ بدء الخليقة.. كالكون نفسه».

هذا شيء جدير بكاتب رعب ناجح.

اسم الرواية «موعدنا الليلة».. بالطبع لا يتحدث عن لقاء عاطفي، بل هو تهديد واضح لا شك فيه. عندما تقرأ لفظة «عشاء» في رواية رعب، فأنت لا تفكر في العشاء الذي نعرفه.

بدأ فايز يطالع القصة، وبدأ يندمج:

«هناك بائع متجول اسمه ويليام يعود إلى بيته ليلًا..
لا يعرف أن هناك من يراقبه طيلة الوقت.. لا يعرف بالذات أن من يراقبه هو آكل لحوم بشر هاوٍ، يحاول



أن يجد فريسة لهذه الليلة.. ليلة واحدة تجعله يكف لمدة ستة أشهر قبل أن يداهمه الجوع من جديد...».

ما هذا؟

لمح فايز انتفاخًا غريبًا في غلاف الكتاب الخلفي السميك المُجلَّد. مد يده يتحسسه.. كان الفضول قاتلًا. أخرج تلك الأداة التي تصلح كمطواة أو لقص الأظفار، وعالج النصل ليخرجه. يكره أن يفسد غلاف هذا الكتاب، لكن الفضول يغمره.

بصعوبة وبدقة جراحية خرج شيء يشبه قطعة العملة الرقيقة جدًّا.. كُتبت عليها عبارات بلغة لا يعرفها.. ربما هي «المسمارية».. لغة لا بد أنها من بلاد ما بين النهرين، أو قادمة من كوكب آخر. ما هي؟ إنها تتألق.. لا.. هذا خيال.. لا بد أن الإرهاق هو السبب.

دس فايز الرقاقة في جيبه وعاد يقرأ:

«يبدو أن القاتل مُصرٌّ على أن يتتبع ويليام.. إنه يصعد معه إلى مترو الأنفاق الخالي من الرُّكاب.. يجلس في مقعد خلفي ويراقبه. ويليام لا يلاحظ شيئًا لأنه مرهق...».

هنا مر المُحصِّل وطلب التذكرة من فايز.. ابتسم له ثم واصل طريقه، ولم يتوقف عند الرجل النائم.

عاد فايز يقرأ القصة.

بدأ يتوتر والأحداث تشده معها.. ماذا سيحدث لذلك المسافر المرهق الوحيد؟

«نهض المسافر آكل لحوم البشر، ومد يده إلى حقيبة فوق المقعد، فسقطت أرضًا وأحدثت دويًّا هائلًا.. إنه



يُخفي فيها المُدى الضخمة والحبل والمُخدِّر.. سوف
ينتهي من عمله بسرعة ويفر.. يضع أكبر قدر من اللحم
في الحقيبة ويغادر المترو...».

قال فايز لنفسه إن القصة ممتعة فعلًا، لكنه يحتاج إلى شجاعة كي يقرأها في بيته وحده ليلًا وفي الظلام.. سيكون هذا صعبًا.. إن الوحدة تُضخِّم الخيال مرَّتين، والظلام يُضخِّمه خمس مرَّات.

رأى الرجل الذي كان جالسًا في مقدمة القطار ينهض.. يبدو أنه يبحث عن حقيبته التي وضعها على الرف فوق المقعد، لكنها سقطت منه على الأرض مفتوحة فأطلق سُبة وانحنى يجمعها.

عاد فايز إلى القصة:

«نهض الرجل الغريب آكل لحوم البشر من مقعده
ومشى جوار ويليام.. وفجأة انقض عليه وغرس إبرة
في عضده. صرخ ويليام.. لم يفهم أن هذا مُخدِّر، ولم
يفهم أنه سيعمل سريعًا جدًّا.

نهض ويليام محاولًا إبعاد الغريب لكنه سقط أرضًا..
وفي اللحظة التالية صار بالكامل تحت تصرف آكل
لحوم البشر.

بدأ الوحش يمارس مهمته المخيفة...».

كان فايز مستمرًّا في القراءة وقد توترت كل حواسه.. غاص بالكامل في الكتاب، فلم يعد يعرف ما يدور من حوله.. لا يعرف أن الرجل الجالس في مقدمة العربة قد نهض.. لا يعرف أنه مشى نحوه بشكل عابر.. لا يعرف أنه كان يحمل محقنًا.. ولم يدرك إلا في اللحظة الأخيرة أنه غرسه في عنقه.



نهض فايز مذعورًا، وسقط الكتاب من يده...

حتى وهو يدرك أن وعيه ينسحب، أدرك أن هناك خطأ ما...

الرقاقة التي وجدها في الكتاب.. ما معناها؟

تمهّل قليلًا يا وعيي.. سوف نعرف حالًا حقيقة هذه الرقاقة.. سوف أفهم.. سوف أفهـ...

وامتد الظلام ليلتهمه.. كانت هناك حفرة عميقة أزلية.. عرف وهو ينزلق لها أنه لن يعود.

* * *

وجّهت هند عبارات الشكر إلى بائع الكتب وهي تتجه إلى تلك الكافتيريا الصغيرة.

جلست لاهثة، وطلبت من الساقي قدحًا من الكابوتشينو، ثم أخرجت الكتاب في لهفة.. مغناطيسي العزيز.. ذريعتي.

اسم الكتاب هو «موعدنا الليلة».. عنوان شبه رومانسي لولا أنها تعرف عالم «جون كالوزي» المخيف. سوف تقضي ليلة رائعة مع هذا الكتاب البرّاق.. لكن ما سبب هذا الانتفاخ في غلاف الكتاب الخلفي؟ لا يهم.. هذه أخطاء تجليد تحدث دائمًا.

هذا الرجل الجالس هناك.. هل هو يراقبها؟ إنها واثقة من نفسها، قوية الشخصية، لكنْ فيه شيء مخيف بلا شك!

بدأت تُطالع بعضًا من سطور الكتاب:

«هناك محاسبة اسمها «هيلين» عائدة من عملها ليلًا..
يبدو أن هناك سفاحًا يلاحقها.. لا تجد سيارات أجرة
فتضطر للمشي وحدها في شوارع بروكلين المظلمة

في هذه الساعة المتأخرة.. واضح أن السفاح خلفها..
ومن المؤكد أنه سيلحق بها...».

هذه قصة مثيرة يجب أن تقرأها في البيت على مهل.

انتهت هند من الكابوتشينو فدفعت ثمنه وغادرت الكافتيريا. أين ذهب الرجل المخيف الذي كان يختلس النظر إليها؟!

في الخارج كان الظلام وكان البرد.

لا توجد سيارات أجرة.. يبدو أنها سوف تعود إلى بيتها مشيًا على الأقدام، وهي مهمة شاقة جدًّا.

لا يهم.. إن ليلة ممتازة تنتظرها مع هذا الكتاب الساحر...





سفاح المستنقعات

«كانت لمياء دومًا في كل حادث من حوادث السفاح، وكانت تسبقني وعائشة دائمًا نحو مسرح الحادث والنشر.. وأشهد أنها لم تُصب بأي درجة من الذعر وهي ترى أكثر الجثث تمزقًا وأبشعها.. هي هادئة الجنان دائمًا، على درجة من البرود لا شك فيها.. بالمناسبة كانت لمياء تلبس العوينات السوداء كثيرًا جدًا.. لماذا؟».



«سبلاش.. سبلاش!».

يمكنك سماع صوت القدمين وهما تبعثران الماء الموحل.. تتسع الدوائر ويضطرب السطح اللجيني النائم في ضوء القمر الفضي. القمر فاتر شديد البرد واللامبالاة يرمق هذا المشهد.. قاسٍ كنصل السكين، يطل من وراء أستار الغيوم، فيبعثر بعضًا من نوره الفضي عليها قبل أن يتوارى.

«سبلاش.. سبلاش!».

تتمنى لو كانت الحياة أفضل من هذا.. لو كان القمر يبعث ضوءًا أكثر فعالية وبهجة.. لو كان الركض في أوحال المستنقعات أسهل.. لو أنك تمساح أو أفعى.. لو أن حظك أفضل أو أن مطاردك أبطأ وأضعف.

لكن لات حين مناص.. لا مجال للتمنيات.. نحن في زمن الحقائق!

والحقائق تقول إنك ستموت هنا والآن.. لأنك لن تستطيع الفرار



إلى ما لا نهاية.. إن الخطر أقوى منك وأكثر رشاقة، وينساب فوق المستنقعات بسهولة تامة.

أنت تغوص في الوحل حتى الركبتين، وتحاول جاهدًا أن تتماسك.. لو عبرت إلى هذه الضفة فلربما كانت هناك فرصة في الركض.. لا تنظر إلى الخلف.. كل من ينظرون إلى الخلف أثناء الركض يسقطون ويتيهون.

ما مصدر هذا الصراخ الذي يصم الأذنين؟ من يصرخ؟ لحظة... هذا أنت! أنت من يصرخ بهذا الشكل وكل هذه الهستيريا، وكنت تحسب أنك أكثر تعقلًا واتزانًا.

«ليتني أكف عن الصراخ! هذا الصراخ يشتت انتباهي ويفقدني التركيز ويشعرني باقتراب النهاية».

لا جدوى.. لا بد من التوقف والتقاط الأنفاس.. لا بد من المواجهة.

المطواة في يدك.. ربما بشيء من البراعة والسرعة استطعت أن... ما هذا الشيء الدافئ الذي يبلل صدرك؟ ما هذا الوهن الذي يسري في جسدك؟ من وضع هذا الستار الأسود أمام عينيك؟ ما الذي...

* * *

أحد صيادي البط وجد الجثة الطافية فوق المستنقع، وقد تمكنوا من جرها إلى الشط. كان هناك العديد منهم لأن هذا هو موسم الصيد في يناير.

جاء رجال الشرطة بعد الظهر، وأنا معهم طبعًا.. كنت أحمل الكاميرا، والتقطت حشدًا من الصور أعرف أن معظمه لن يُنشر ككل

صور سفاح المستنقعات.. عندما يفرغ من عمله تكون الصور غير قابلة للعرض إلا في مواقع الرعب الغربية.

ليست بركة «عنان» هي أكبر البرك هنا.. هناك بركة «إتيان» ومساحتها ثلاثة آلاف فدان.. هناك بركة «العباسة» التي كان الملك فاروق يحب الصيد فيها، لكنها صارت مزارع أسماك حاليًا. يمكنك أن ترى طيور أوروبا المهاجرة في كل مكان من حولك.. من العسير أن تذكر كل الأنواع التي تطل عليك من وراء الأعشاب الطويلة.. أعتقد أن منها «الشهرمان» و«البلبول».. تذوقت الطائر الأخير منذ أعوام وكان طعمه كريهًا بحق، زفارة لا يمكن وصفها، مما جعلني أقرر أنها طيور لمتعة العين لا البطن. إنه منظر بهيج فعلًا، لكن وجود جثة ممزقة بهذا الشكل يفسد مزاج أي شخص في العالم.

قال الضابط:

ـ أكثر من صياد كان موجودًا في لبدة الصيد منذ الفجر ولم يرَ شيئًا.. ما نراه حدث ليلًا ولم تشهد عليه سوى الطيور.

ثم أشعل لفافة تبغ، فأضفت:

ـ كالعادة.

لكن أحدًا لم يهتم أو يعلق بما أنني شخص سخيف وممل.. لكنهم لا يتخلصون مني لأنني كمحقق حوادث أقدم لهم فرصة الشهرة.. كل واحد فيهم سيشتري لزوجته الجريدة لتقرأ: «انتقل فريق البحث بقيادة المقدم فلان والملازم فلان».. إنه مهم جدًّا.. ومن هنا تأتي أهميتي أنا.



هناك لمياء وعائشة وصفوت.. الوجوه الصحفية الدائمة.. البعض جاء من فاقوس، والبعض جاء من مكتب جريدته في الزقازيق. وقد صار واضحًا أننا سنقيم هنا لفترة طويلة.. الكل يلبس أحذية طويلة العنق بالطبع.

للمرَّة الرابعة هناك جثة شاب ممزق بلا قطرة دم واحدة، يرقد وسط أوحال المستنقع، ومن الواضح أنه قضى ليلة سوداء.. هناك شخص يتلذذ جدًّا بهذه الحفلات.. غالبًا هو ـ القاتل والمقتول ـ من صيادي البط الوافدين هنا.. أو هو من المقيمين الأصليين.

كنت أحمل ميلًا خاصًّا نحو عائشة.. محررة الحوادث في جريدة الـ«...»، وهي جريدة موجودة على النت فقط.. هناك جاذبية خاصة للفتيات الخاليات من الأنوثة.. يمكنك في لحظة بعينها أن تتصور أنها شاب وسيم، خاصة مع شعرها القصير وثيابها العملية.. هي كذلك شخصية جادة، وأنا أمقت الدلال الأنثوي لأنه يختلط بالميوعة كثيرًا.

صفوت أحمق.. هذا يلخص كل شيء ولا داعي لإطالة الكلام. يبدو كأحمق، ويفكر كأحمق، ويتكلم كأحمق. هل تعرف السبب؟ لأنه أحمق.. وله زوجة حمقاء مثله تنتظره في قريته.

لمياء حسناء رقيقة تبدو كأنثى جدًّا، وأعتقد أن صفوت يميل لها برغم أنه متزوج. هذه العلاقات قد ولدت مع الوقت برغم أننا نمثل صحفًا متنافسة، لكن وجودنا جميعًا في محافظة الشرقية جعلنا نقترب جدًّا.

أشعل صفوت ـ لأنه أحمق ـ لفافة تبغ، فصاحت عائشة في ضيق:



ـ كُف عن هذا! لا أطيق رائحة التبغ!

قلت لها وأنا أمد يدي لأعينها على الخروج من وهدة بين الأعشاب:

ـ هذه الرائحة هي الطريقة الوحيدة لتبديد رائحة المستنقعات.. السجائر أقوى مزيل روائح عرفته البشرية في رأيي.

دنوت من الضابط ممسكًا جهاز التسجيل، محاذرًا أن أسقط في المياه الموحلة، وسألته:

ـ هل من خيط جديد يا سيدي؟

ـ لا شيء.. نفس الطريقة.. غالبًا نفس القاتل.. من الصعب مراقبة هذه المساحات الشاسعة ليلًا، فليس لدينا رجال يكفون لهذا.. أعتقد أننا سنعتمد على الإعلام.. سوف نحدث حالة من الرعب والحذر، وهذا دوركم طبعًا.

كنت أعرف أن هذا دورنا وأرحب به جدًّا.. ليس أحب للصحفي من أن يثير الذعر في النفوس.. «جميل أن تتسق مصلحتي مع مصلحة الحكومة والمصلحة العامة.. لحظة تناغم نادرة!».

بينما كنا نبتعد بصعوبة عن موقع المذبحة، كنت أمشي جوار صفوت. كانت لمياء تنساب من بعيد مع عائشة وقد تأبطت ذراعها.

قال صفوت وهو يتأمل لمياء الرشيقة تسري ولا تمشي:

ـ لمياء تبدو لي فوق الواقع.. أسطورية... لا أرضية.. هل تعرف أنها ليست مصرية؟

بدا لي هذا غريبًا.. كل شيء فيها يوحي بأنها مصرية.. لهجتها مصرية جدًّا.



قال صفوت:

ـ أبوها وأمها ليبيان.. جاءا إلى مصر وهي طفلة.. ألا يُسحرك هذا؟ إنها مختلفة في كل شيء!

هززت رأسي.. وكنت أفكر في رحلة العودة المرهقة إلى الزقازيق، والمقال الذي سأكتبه.. لكن لا بد أولًا من غداء دسم كما تعلم.

* * *

اتصل بي صفوت يطلب لقائي.

كنت في مكتب الجريدة الصغير في شارع «القومية»، أحاول كتابة تعليقي على الحادث، عندما اتصل بي. رشفت رشفة من كوب الشاي الثقيل، وسألته في ملل عما هنالك. صفوت أحمق ولا يفعل شيئًا سوى أن يضيع وقتي.

جاء صوته القلق الملوث بالعرق (لا يوجد خطأ لغوي هنا) يقول:

ـ جلال.. هل تعرف مقهى «...» قرب كوبري الصاغة؟ سوف نلتقي هناك بعد العصر.

كالعادة.. بعد العصر.. هذا قد يكون بعد ربع ساعة، وقد يمتد حتى المغرب، بل إن المغرب والعشاء ينطبق عليهما تعبير «بعد العصر» كذلك.

قلت له في نفاد صبر:

ـ في تمام الثالثة.. نفس المقهى.

ووضعت السماعة.. أعرف ما سيحدث وما سيُقال. هو يملك رغبة عارمة في خيانة زوجته، ويعتقد أنه واقع في حب لمياء، ولسوف يصدع رأسي بكلامه الفارغ الذي يروق له جدًّا. لا حول ولا قوة إلا بالله.

* * *



بحذر ليحافظ على «الوش»، صب القهوجي السائل الأسود زكي الرائحة في الكوب، فأشعل صفوت لفافة تبغ استنشقها في تلذذ، ثم وضع لي ثلاث ملاعق من السكر في الشاي دون أن يسألني، كأنه يحسن ضيافتي بزيادة كمية السكر، ثم قال:

ـ عواطف.. أنا أشك في عواطف.

عواطف إن كنت لا تعرف هي زوجته.. ابنة عمه القروية الساذجة التي جاءت معه مؤخرًا من قريتها، وتقيم معه في شقة رخيصة ضيقة على بُعد أمتار من هنا.. عمارة بها عدة عيادات للأطباء.

قلت له في غيظ:

ـ تشك؟! هل تعتقد أنها تخرج ليلًا للسطو على المارة؟ هل تبيع الحشيش؟

امتقع وجهه وقال:

ـ دعك من السخف.. أنت تعرف معنى الشك عند الذكر الشرقي.. إنه يتعلق فقط بالخيانة الزوجية والشرف، إلخ.

تلك السيدة المسنة اسمها نجوى.. سيدة في الستين من عمرها، متغضنة كتفاحة ذابلة، وتلبس الأسود.. ثوبًا طويلًا أسود.. تتوكأ على عكاز من الألوميتال يشبه حامل الكاميرا.. جاءته في مكتبه لتقول له إنها تمقت الحال المائل، وإن كتمان الشهادة خطيئة:

ـ اسمي نجوى علام.. أسكن في البناية المواجهة لبيتك.. هذا شارع مزدحم وهناك عدة عيادات أطباء في بنايتك مما يجعل دخول الناس وخروجهم أمرًا لا يلاحظه أحد.. لكني أتلصص كثيرًا وقد رأيت ذلك الرجل يدخل للبناية مرارًا.. ثم بعد هذا



كنت أراقب شرفة دارك، فأراه هناك مع زوجتك. لاحظت أنه لا يأتي إلا عندما تخرج أنت.. أحيانًا يخرج، ثم تلحق به زوجتك بعد دقائق، ثم تعود وحدها. أجريت تحرياتي وعرفت أنك تعمل هنا.

كان يصغي وهو يفتح القداحة ويغلقها في شرود.. يراقب اللهب الوليد ثم يدفنه.. حالته النفسية تتجسد في هذه الشعلة.. سمع المرأة تشهق وتقول:

ـ أطفئ هذه وكلمني!

سألها صفوت وهو يجفف عرقه:

ـ ومن أدراكِ أنه ليس أخاها؟

اهتز صدرها المسن بضحكة مكتومة، وقالت:

ـ ابن أختي يجيد استعمال كاميرا الهاتف الجوال.. لا أفهم هذه الأمور «المسخمطة» بحكم سني، لكنه استطاع التقاط بعض الصور عندما لمح العاشقين من الشرفة.

ثم عبثت في حقيبتها، وأخرجت لصفوت هاتفًا جوالًا صغيرًا... أنامل طويلة شبيهة بالمخالب، وخاتم ضخم شبيه بثمرة التوت.. وقالت:

ـ قطيعة! لا أعرف كيف أبحث عن الصور فيه.. يمكنك أن تنظر بنفسك.

بيد مرتجفة ملوثة بالعرق أمسك صفوت الهاتف، وراح يفتش فيه.. حلقه يجف.. يحتبس صوته.. يوشك الهاتف على السقوط فيلتقطه.



تقول العجوز وهي تنهض:
ـ لا أريد أن تتهور يا بني.. لا أريد أن تجن.. فقط أردت أن أقول لك كُن حذرًا، يمكنك أن تُطلِّقها فلا تضيِّع مستقبلك.

لكنه لم يرد.. كان ينسخ الصور من هاتفها إلى هاتفه بخاصية البلوتوث.. وعندما انصرفت العجوز تتوكأ على عكازها، كان الكون قد سقط فوقه، كأن أعمدة السماء قد تآكلت.

قال لي صفوت وهو يناولني الجوال ويشعل لفافة تبغ أخرى بيد ترتجف:

ـ هكذا.. هكذا ترى الصور.. لا أطيق ألَّا أقتلها.. أريد أن أتحامق وأندفع للحد الأقصى.. التعقل والحكمة يبدوان لي خاليين من الرجولة، فقيرين في النخوة.. الرجل الحق يذهب لتلك المرأة ويذبحها.

كنت أتأمل الصور، ثم قلت له في حذر:

ـ لا أعرف مدى صحة هذا الدليل.. نحن في عصر الفوتوشوب حيث يمكن أن ألفق لك صورة وأنت تقتل «يوليوس قيصر»، لا بد من خبير تصوير ممن تستعين بهم المحاكم ليفحص هذه الصور.. ثم اسمح لي بحقيقة لا تخفى على أحد.. زوجتك قبيحة جدًّا وبائسة وشاحبة، ولا تُغري صرصور حقل على إقامة علاقة معها.. العلاقة الجنسية تحتاج ببساطة إلى أن تكون هناك جاذبية جنسية.. زوجتك يمكنها أن تمشي بالمايوه في زقاق مليء بالمخمورين ومدمني المخدرات، ولن يضايقها أحد، سوف يعتبرونها مجرد سحلية تمر مصادفة.. أنا آسف على



وقاحتي، لكني أرى الدليل على شرف زوجتك في وجهها الخالي من الأنوثة.

ابتلع ريقه ولم يتكلم.. عليه الاختيار بين إهانة شرفه وبين إهانة جمال زوجته. اختار أقل الخطرين.

قلت وأنا أعيد إليه الهاتف:

ـ أرى أن تُحكِم الرقابة وتتريث.. من الحلول الممتازة أن تزعم أنك سافرت ثم تقبع هناك تراقب.. فتِّش عن الأرقام في هاتفها الجوال.

قال في حزم:

ـ ليس لديها جوال.

ـ حسنٌ.. لا تقنعني أن زوجة ما زالت تعيش في عصر الكهف قادرة على خيانة زوجها.

كنت أعرف ما سيحدث في الأيام القادمة.. سوف يقنع نفسه أنه تعيس.. سوف يقنع نفسه أنه بحاجة إلى حضن دافئ.. سوف يبحث عن لمياء الحسناء.. هذه هي الذريعة النفسية التي ستروق له.

* * *

اختفى صفوت في الأيام التالية.. لم يعد يظهر كثيرًا.. وعندما كان يظهر كان يتكلم عن لمياء الحسناء الرشيقة الفاتنة التي جاءت لتعيد إليه الثقة بنفسه.

ـ هل راقبت زوجتك أو على الأقل طلقتها أو قتلتها؟

ـ لم أتأكد بعد.

ـ كنتَ متحمسًا.

عرفت منه حقائق غريبة: لمياء من أب وأم ليبيين.. لمياء تزوجت



مرَّة برغم صغر سنها ورُزقت بطفل ثم تُوفِّي فتركها زوجها.. إنها تقيم قرب شارع عبد العزيز علي.. تعيش وحدها وتمارس العمل الصحفي كما قلنا. بدا لي الأمر ممهدًا.. سيطلق صفوت زوجته ويفوز بلمياء. لن أحسده كثيرًا لأنني أحب عائشة كما قلت لك. عرفت مع الوقت أنه لا يعود للبيت تقريبًا.. يمضي أكثر وقته في مكتبه أو يخرج مع لمياء.. إنه غارق في الحب لأذنيه كما ترى.

مرت فترة لم أسمع فيها عن صفوت، ثم دخلت بيتي ذات يوم فوجدت الجوال يدق في إلحاح.. كان هذا صوت أحد رفاقي الصحفيين يقول في ارتباك:

ـ جثة جديدة ممزقة في المستنقعات.. لقد ضرب السفاح مرَّة جديدة.

وضعت الهاتف بين كتفي وجذور عنقي لتظل يداي حرتين أصب بهما بعض الماء البارد في كوب، ثم قلت:

ـ حالًا.. سوف أذهب هناك بالمواصلات.. سأبحث عن صفوت لأنه...

قاطعني في حذر:

ـ هذه هي المشكلة.. الجثة هي جثة صفوت نفسه!!

سقط الهاتف على الأرض...

وعلى الفور تداعى أمام عيني شريط من المعطيات: لمياء.. ليبيا.. طفل مات.. صفوت لم تعد له علاقة بأحد سوى لمياء.. هل يمكن استخلاص شيء من هذا؟

«لاميا»!!

* * *

كان هذا جنونًا بالتأكيد.

لماذا فكرت في هذا؟ وما تلك الفكرة الطفولية التي خطرت لي؟

لكن المشاهد راحت تتتابع في ذهني وأنا متجه لموقع الحادث.

الحقيقة أنني كنت أشعر بشيء من الافتتان نحو لمياء.. ليس افتتان العاشق، ولكن افتتان المسحور؛ ففيها تلك اللمسة التي تميِّز الساحرات الشريرات القاسيات في القصص.. ثمة شيء غير أرضي في وجهها. أنت تعرف أنني أحب عائشة بالطريقة العادية الصحية التي يحب بها أي رجل أي فتاة.

كانت لمياء دومًا في كل حادث من حوادث السفاح، وكانت تسبقني وعائشة دائمًا نحو مسرح الحادث والنشر.. وأشهد أنها لم تُصب بأي درجة من الذعر وهي ترى أكثر الجثث تمزقًا وأبشعها.. هي هادئة الجنان دائمًا، على درجة من البرود لا شك فيها.. بالمناسبة كانت لمياء تلبس العوينات السوداء كثيرًا جدًّا.. لماذا؟

هل هذا كافٍ؟

هناك أسطورة قديمة لا أذكر تفاصيلها، لكنها تتحدث عن امرأة اسمها «لمياء».. ذكِّروني أن أستعيد الذكرى عندما أعود.. ذكِّروني.

* * *

بالفعل كانت لمياء هناك.. سبقتنا عند ضفاف المستنقع، وعند قدميها كانت الجثة الممزقة الملوثة بالأوحال، وقد أرقدوها فوق غطاء متسخ. لم تكن مهتمة على الإطلاق، بل بدت لي أقرب إلى نمر يقف في فخر متأملًا جثة فريسته. وكنت أرى وجهي المذعور في انعكاس عويناتها الشبيهة بالزجاج. عبقري الذي اخترع قناع العينين هذا!

الضابط كان هناك وخبراء المعمل، وكانت هناك عشرات الصور.
نظرت إلى جثة صفوت.. كان أحمق، لكنه مات ببشاعة. تذكرت ضحكاته.. كلماته.. انفعالاته.. لم أرَ شيئًا من هذا على الوجه الممزق. كانت هويته معه وهكذا عرفوا مَن هو.. سيكون الخبر مثيرًا بالفعل.. إن وفاة صحفي حدث مثير دائمًا.. خبر مصرع صانع الأخبار نفسه.

كنت أبكي.

كنت أقسم على الانتقام.

لماذا أرمق لمياء بهذه الكراهية؟ لماذا أرد عليها بهذا الجفاء؟

قال الضابط وهو يجلس القرفصاء جوار الجثة، ويلهث من الضغط على حجابه الحاجز:

ـ هناك أجزاء تم التهامها.. كما أن العروق خالية من الدم كالعادة.. أعتقد أنني أعرف تقرير الطبيب الشرعي قبل كتابته.

قال زميله وهو ملازم شاب متوتر حديث العهد بهذه المشاهد:

ـ هل تتحدث عن مصاص دماء؟

ـ وآكل لحوم بشر كذلك!

ثم نهض وأشار إلى الأرض، وقال وهو ينظر إلى وجهي:

ـ الأمر كله يبدو قادمًا من جهنم! في كل مرَّة لا يرى أحد من صيادي البط شيئًا.. في كل مرَّة يفرغ الدم من الجثة.. في كل مرَّة يتم التهام أجزاء.. في كل مرَّة نرى آثارًا كهذه.

آثارًا كهذه؟

كان الوحل ما زال طريًا على جانب المستنقع، لكنك تستطيع بسهولة أن ترى آثارًا.. آثار أقدام ربما، لكنها مختلفة تشريحيًا.. كأن

هناك من يمشي على قبضته مثلًا.. ربما هي تشبه الحدود الخارجية لرسم القلب.

نظرت إليه في دهشة، فقال:

ـ هل هذه أقدام بشرية؟ هناك وحش في هذه المستنقعات!

حككت رأسي مفكرًا، وبدا لي الأمر مألوفًا نوعًا. هناك فيلم سينمائي من أفلام الرعب العتيقة، كان السفاح يمشي فيه على قبقاب خشبي حُفر من أسفله ليرسم مخالب أسد أمريكي.. هكذا كان الناس يتحدثون عن «جاجوار» بينما الفاعل إنسان.

ـ الأمر يحتاج إلى رأي شيخ!

قالها وراح يضحك حتى سعل.. كان في الثلاثين من عمره، ويبدو أنه قد رأى الكثير فعلًا.. ثم أضاف:

ـ هناك شيوخ يجيدون طرد العفاريت في الزقازيق.. كان هناك أيضًا طبيب يجيد هذه الأمور، اسمه «رفعت» لو لم تخني الذاكرة، كان من أبناء الشرقية، لكنه مات للأسف.

كنت شارد الذهن.. كنت أحملق في لمياء.. كنت أرتجف.. كنت أفكر في صديقي عامر.. عامر في الخمسين من عمره، وله رسالة دكتوراه عن فكرة الإلهة الأنثى لدى الديانات الوثنية.. لو لم يكن يعرف شيئًا عن هذه القصة فأنا لا أعرف من أين أبدأ.

ليس من عملي أن أجد القاتل، بل عليَّ أن ألاحق أخباره فحسب، لكن وفاة صفوت ألقت على كاهلي مهمة الانتقام. صفوت كان أحمق، لكنه صديقي، وبالتأكيد لم يستحق ما حدث له.

* * *



قالت عائشة وهي ترشف الليمون:

ـ ما زلت لا أفهم!

عيناها الماكرتان الواسعتان في وجهها الصبياني اللطيف لا أشبع منهما أبدًا.. كنت أعرف أنها تخشى أن أبدأ في الغزل وهذا الكلام الفارغ. لسبب ما يعتقد الرجال أن عليهم أن يغازلوا أي أنثى لطيفة. كنت واقعًا في حبها، لكني لم أكن أنوي أن أحيل حياتها جحيمًا.. ليس الآن.

كان هذا نادي «أحمد عرابي» وقت العصر.. أحب هذا الجو كثيرًا، لكني لست في مزاج يسمح بالانتشاء. ومن بعيد ظهر عامر.. دكتور عامر إذا شئنا الدقة.. من الصعب أن تُصدِّق أنه حاصل على الدكتوراه أو أنه في الخمسين.. مستحيل.. إنه شاب حديث السن فارع القامة يصلح ممثلًا.. تذكرني ملامحه كثيرًا بملامح «روبرت دي نيرو» لو كان هذا الأخير ذا قامة فارعة.

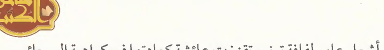
رآني فهش وجهه، وكان يحمل مجموعة من الأوراق.. جذب مقعدًا فجلس معنا، ثم عرَّفته على عائشة.. قلت له بصراحة إنها من جريدة منافسة، لكني أعتبرها زميلة عزيزة.

قالت عائشة:

ـ ما زلت لا أفهم سبب استبعاد لمياء من هذا اللقاء! أنا منافسة وهي منافسة!

لمياء.. هذا هو بيت القصيد.

المرأة الشريرة الخالدة.. الإلهة الأنثى التي قد تمنح الخصب مثل «إيزيس» و«عشتار»، أو تنشر الرعب والدم مثل «سخمت» و«ليليث» و«لاميا» و«الأخوات أمبوسي»... عامر يملك إجابات.



أشعل عامر لفافة تبغ.. تقززت عائشة كعادتها في كراهية السجائر.. لهذا أدخن بعيدًا عنها كأنني طالب ثانوي.. لم ترني أدخن قَطُّ.

قال عامر وهو يُقلِّب في الأوراق:

ـ لا أفهم جُل قصتك، لكني سأخبرك بما أعرفه عن «لاميا»: حسناء تعيش في ليبيا أو ربما الملكة نفسها.. كالعادة كان «زيوس» كبير الآلهة ـ حسب الأسطورة ـ مولعًا بالنساء الأرضيات.. كان يتسلل من وراء المدام ليمارس الخطيئة معهن، وكانت «هيرا» تعرف في كل مرَّة فتنتقم من الأرضية البائسة التي سحرت زوجها. هكذا انتقمت «هيرا» من «لاميا» فلعنتها.. قتلت أطفالها وجعلت عينيها لا تنغلقان لتطاردها أشباح أطفالها للأبد.. حولتها إلى وحش مخيف شبيه بالأفعوان، وكتبت عليها أن تمتص دماء الأطفال وتأكلهم لتعذب الأمهات الأخريات.. الخدمة التي قدمها «زيوس» لعشيقته السابقة هي أن جعلها قادرة على نزع عينيها لترتاح من الرؤى قليلًا.

هتفت عائشة في رعب:

ـ يا للشناعة!

قلت باسمًا:

ـ هناك قصص أشنع لنساء أرضيات اكتشفن خيانة أزواجهن.. إنهن يفترسن العشيقة افتراسًا، أما الزوج فيتخلى عن عشيقته بسهولة تامة.. ربما يفتك بها مع زوجته!

ـ لأن الرجال أنذال.



قلت في برود:

ـ ربما، لكن النساء أفاع كما ترين.

كان رأي الاثنين قاطعًا: أنا أهذي وكل هذا تخريف.. لكني كنت مُصرًّا على أن لمياء تتواجد في كل حادث.. تسبقنا.. أصلها ليبي.. مات أطفالها.. لا نرى عينيها بسهولة. هل تكرر الأسطورة نفسها؟

ـ «لاميا» كانت تقتل الأطفال فقط.

ـ ربما توسع نشاطها.

قال عامر في إصرار:

ـ لا يمكن أن تذهب إلى الشرطة وتقول هذا الكلام الفارغ! ثم ماذا عن شكوك صديقك في زوجته وتلك الصور التي أخبرتني عنها؟ ألا تجد أن هذا مبرر كافٍ للقتل؟ زوجة قاتلة أو عشيق قاتل؟ لماذا لم تخبر الشرطة؟

قالت عائشة في دهشة:

ـ لماذا لم تخبرني بشيء؟!

كنت أعبث في الهاتف الجوال لأريها الصور التي تثبت خيانة زوجة صفوت.. هنا.. هنا.. هذا غريب.. لا توجد صور! لقد زالت من الوجود!

* * *

يبدو أننا انتقلنا إلى لعبة «أنا رأيت هذا لكنه اختفى» الشهيرة، وهي الطريقة المثلى لقضاء باقي عمرك في مصحة عقلية. كنت أقلب ذاكرة الهاتف الجوال في جنون، حتى إنني أوشكت على أن أقرعه

بالمنضدة لأفرغ ما فيه من صور كأنها نخاع بقرة.. بدأت أقسم في هستيريا إنني...

ـ أنا أصدقك.

قالتها عائشة في رفق، كأنها تهدئ حصانًا جامحًا، حتى توقعت أن تربت على منخري بينما أركل الغبار بحوافري، ثم قالت:

ـ الملفات تُفقد.. الذاكرة الرقمية ليست خالدة.

ـ لكن باقي الصور سليم!

حكيت لها ما تجهله من القصة بالتفصيل، ثم نهضت وألقيت بورقة مالية على المنضدة وهتفت بلهجة آمرة:

ـ سوف نذهب إلى بيت صفوت.. أريد أن أقابل أرملته.

ـ هل جُننت؟

ـ بالطبع جننت! أنتِ بطيئة التفكير اليوم.. ماذا بوسعي أن أفعله غير هذا لأبرهن على أنني مجنون؟ لا أجد كسرولة أضعها على رأسي.

عامر لديه سيارة «لادا» عتيقة جدًّا، أوصلنا بها إلى الشارع الذي يقيم به صفوت، أو ـ للدقة ـ كان يقيم فيه.. توقفت السيارة، فترجلت أمام البناية الشامخة المزدحمة التي صارت آية في القبح من فرط كثرة عيادات الأطباء واللافتات والسلم المغطى بالبصاق وأعقاب التبغ.. هناك محل عصير قصب تحت البناية، وهناك تاجر أحذية.. تصلبت ونظرت إلى الجهة الأخرى من الشارع.. شركة سياحة.. مصلحة حكومية.. لا توجد مساكن.

عبرت الشارع بسرعة بينما عائشة وعامر ينظران إليَّ في عدم فهم.

جميل أن يعتبرك الناس مجنونًا لأن هذا يعفيك من تفسير تصرفاتك.
هناك كشك سجائر ذهبت إليه وتبادلت الكلام مع البائع، ثم وجدت بائع صحف فوقفت معه ووجهت له بضعة أسئلة، ثم عبرت الشارع وسط السيارات واتجهت إلى محل عصير القصب، ومن جديد دارت محادثة قصيرة.

عندما عدت أعتقد أن بوسعي أن أخمن التعبير الذي ارتسم على وجهي وأنا أنحني على النافذة، ثم عبثت في علبة التبغ، وأشعلت سيجارة. شعرت بحاجة للتدخين مع أن عائشة لم ترني أدخن قَطُّ، فصرخت في ذهول:

ـ هل جُننت؟!

نفثت الدخان، ورحت أتأمل وهج التبغ، ثم قلت:

ـ سئمت تكرار الاعتراف بأنني مجنون منذ صحوت من النوم.. نعم أنا مجنون.

أصرت على أن أطفئ السيجارة وإلا فلن تستمع إليَّ.. فعلت هذا مرغمًا، ثم قلت:

ـ لا أحد على جانبي الطريق يعرف امرأة مسنة اسمها نجوى علام، تعتمد على عكاز معدني ثلاثي وتسكن هنا. هذا منظر لا يمكن نسيانه. صفوت ـ يرحمه الله ـ كان أحمق، وقد قبل قصة العجوز بلا مناقشة، برغم أنه يعرف المنطقة جيدًا، وهو أدرى بأنه لا توجد بناية مواجهة لبيته تصلح لالتقاط الصور. هذه العجوز كانت تخدعه عمدًا، وعلى الأرجح كانت الصور ملفقة. لقد كان حدسي صحيحًا.. أي شخص بكامل قواه



العقلية لن يقيم علاقة مع زوجة صفوت إلا لو كان مولعًا بسحلية «التواتارا»!

ـ ولماذا تخدعه هذه العجوز التي وضعت قدمًا وعكازًا في القبر؟

ـ لا أعرف. كانت لي خالة تهوى خراب البيوت على سبيل التسلية.

قال عامر وهو يسند ذقنه على مقود السيارة الذي لم يتركه:

ـ هل تريدان بعض عصير القصب؟

نظرت إليه وكدت أطلق الشتائم. توقف عن الدعوة البلهاء، وقال:

ـ ليكن.. دعك من هذا.. ما ارتباط مصرع صفوت بتلك العجوز في رأيك؟ قصة العجوز تدعم كلامي عن زوجة قاتلة أو عشيق قاتل.

ـ لا أدري.

ثم أضفت بعد تفكير:

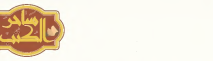
ـ كانت حيلة بغرض دفعه إلى أحضان لمياء. مَن يدري؟ قد تكون العجوز هي لمياء نفسها! لو كنا نتكلم عن «لاميا» ملكة ليبيا المسحورة!

صفرت عائشة بشفتيها بينما نحن نبتعد بالسيارة. لقد عدلتُ عن مقابلة الأرملة.. لا جدوى من هذا.

* * *

الحادث التالي وقع بعد يومين.

في الصباح عرفت بقتيل آخر في بركة «إتيان».. وجده أحد الصيادين كالعادة.. كان من الممكن ألَّا أذهب وأكتب التقرير في مكتبي.. كل شيء سيتكرر حتى التمزيق ومص الدم وآثار الأقدام العجيبة وحتى رجال الشرطة.. هذا السيناريو مستمر إلى أن يشاء الله...



لكن في هذه المرَّة طلب عامر أن يأتي معي لنرى مسرح الجريمة. في الموقع كانت عائشة.. لكن لا أثر للمياء! توقعت أن أجدها كالعادة.. قد نقول إنها لم تأتِ لأنها توقعت أنني أتوقع وجودها كالعادة! هل عرفتْ شيئًا عن شكوكي؟

قالت عائشة مبتسمة:

ـ لمياء لم تأتِ.. أنت ظلمتها.

ـ بالعكس. المتهم الذي يختفي عندما توجه له أصابع الاتهام يثير الشكوك أكثر.. ممكن أن تفعلها ولا تأتي للتحقيق الصحفي بعدها.

ابتعدنا عن المشهد الفظيع، ولاحظت أن عامر معجب بعائشة، لدرجة أنه تأبط ذراعها وهما يبتعدان. يستغل مزايا سنه المتقدمة وأنها في سن ابنته، وهو وسيم جدًّا وغير متزوج.. قد يشكل خطرًا عليَّ بالفعل.. لماذا لا يتركها لي؟ إنها لا تحمل صفات الأنوثة التي تجذب الرجال، بل هي أقرب لشاب وسيم، فلماذا هي بالذات؟ تذكرت المثل القديم: «الكحكة في إيد اليتيم عجبة». كل الناس معجبة بها لأنني أحبها! لو وجدت لقمة ممضوغة متسخة ورفعتها لفمي فلسوف ينتزعونها مني ويجدونها شهية جدًّا!

كانت تضحك.. كأنها عائدة من المسرح.

هناك كان هؤلاء الصيادون يجلسون حول النار تحت شجرة يعدون بعض الشاي، وقد اتجه نحوهم عامر في مرح، وطلب أن نشرب بعض الشاي معهم. أنت تعرف الشراقوة وكرمهم الفظيع، لذا رحبوا بنا بحرارة.. لكن عائشة قالت في ضيق إنها لن تجلس، وابتعدت بسرعة في نوع من الهستيريا التي لم أرَ مبررًا لها.. تركتها

وجلست جوار عامر، وتناولت كوب الشاي زكي الرائحة الذي يغسل همومك وإرهاقك وكل شيء، وأشعلت لفافة تبغ وناولته أخرى، ثم قلت بلهجة ذات معنى:

ـ أنت وجدت صديقة!

قال ضاحكًا وقد فهم مرادي:

ـ دعك من هذا السخف.. إنها ابنة أستاذي في الجامعة.. عرفت هذا عندما تبادلت الحوار معها.. كان أبوها دكتور ثروت الرفاعي مهتمًّا بالأساطير مثلي.. إنها قاهرية أصلًا قبل أن تقيم في فاقوس.

ـ هذه مصادفة عجيبة، لكن من السهل أن تقع في حب ابنة أستاذك.

ـ هي في سن ابنتي.. تذكر هذا.

ثم رشف بعض الشاي، وهنا قطعت محادثتنا أصوات القوم الصاخبة.. من كانوا مع الشرطة.. يحمل أحدهم شيئًا ملوثًا بالوحل ويتأمله في فضول:

ـ كان مدفونًا في الأوحال...

دنوت لألقي نظرة، فرأيت ما في يده برغم الوحل والأعشاب المتمسكة به.. هذا عكاز ثلاثي مما يستعمله المسنون للمشي!

الكل يتساءل عن مصدر هذا العكاز، لكنني وعامر وعائشة تبادلنا نظرة فهم.. هذا العكاز مألوف جدًّا. وابتعدنا عن الزحام والقوم الذين لا يفهمون شيئًا.

قال عامر:

ـ العجوز التي كانت تتوكأ على عكاز ثلاثي.



قلت بصوت مبحوح:

ـ يمكن بسهولة استنتاج ما حدث، العجوز التي زارت صفوت كانت لمياء، وكانت تدفعه للشك، ومن ثَمَّ الارتماء في أحضانها. أعتقد أن «لاميا» كانت تملك القدرة على تغيير الشكل (shapeshifter).

كنا نفكر، وابتعدنا شاعرين بأن رؤوسنا تزن عدة أطنان.

ليلة سوداء تنتظرني، لكن عليَّ قبل كل شيء أن أعرف أين ذهبت لمياء.. لا بد من مواجهتها بما نعرفه، وعليها أن تعطيني تفسيرًا واضحًا.

قال عامر لاهثًا:

ـ القصة مريبة غريبة، لكن تبقى حقيقة أنك لن تستطيع أن تقول للشرطة إن «لاميا» التي لعنها «زيوس» هي القاتلة.

ـ أتمنى أن أرى وجوههم وأنا أخبرهم بذلك.

ـ سوف تمرح كثيرًا إلى أن تصل سيارة مستشفى المجانين طبعًا.

لحقت بنا عائشة وهي تلهث من مكافحة الأوحال، ثم تأبطت ذراعي بحركة تلقائية راقت لي جدًّا، ونظرت إليَّ بعينيها الطفوليتين اللعوبين، وقالت:

ـ أنا ذاهبة إلى تل بسطة غدًا.. ذلك التحقيق اللعين! هل تأتي معي؟

قلت ضاحكًا:

ـ أنا منافس ونذل.. هل نسيتِ؟

ـ لكنك صديق.. لا أعرف من أذهب معه سواك، فليست مهمة فتاة وحيدة.. تعالَ نمضِ يومًا لطيفًا.. لكنك لن تسرق كتاباتي طبعًا.



ـ سأحاول. ظننتك تعملين في الحوادث فقط.

ـ أنا في نظر رئيس التحرير مسؤولة عن أي شيء في الشرقية.. قل له إن هذا ليس عملي، ولترَ كيف يكون رد فعله الرقيق.

عندما عدت إلى بيتي أعددت لنفسي وجبة ساخنة، واستحممت، ثم رحت أتصل بكل من يعرف لمياء. هاتفها لا يرد، ولا أثر لها.. أين هي بالضبط؟

اتصلت بمكتب الجريدة الذي تعمل فيه، فجاء صوت فتاة ملول ناعسة تقول:

ـ لمياء لم تعد هنا.

ـ هل تركتْ عنوانًا؟

قالت الفتاة بعد تفكير:

ـ طلبت نقلها إلى مكتبنا في الإسكندرية.. تم هذا منذ أسبوع.. غريب ألَّا تعرف هذا ما دمت تقول إنك صديق قديم!

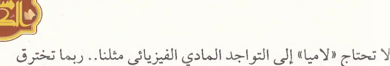
ـ لم تودع أحدًا أو تقل شيئًا.

أضافت الفتاة وهي تتثاءب وعلى الأرجح تلعب في أصابع قدمها:

ـ كانت تتحدث عن الذهاب إلى ليبيا.. لديها أقارب هناك.. سلام.

ووضعتْ السماعة، بينما شعرت أنني دست على سلك كهربائي.

لم تكن لمياء موجودة بتاتًا مع جريمة القتل الأخيرة، كانت في الإسكندرية، وعلى الأرجح هي هناك منذ مات صفوت، ربما لأن صدمة وفاته كانت قاسية جدًّا، أو لأنها بدأت تميل له، أو ـ ببساطة ـ هي قتلته وتفلت من شكوكنا.. لكن كيف اقترفت آخر جريمة؟ ربما



لا تحتاج «لاميا» إلى التواجد المادي الفيزيائي مثلنا.. ربما تخترق المسافات...

رأسي يوشك على الانفجار.

* * *

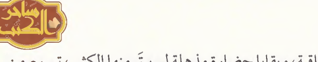
«بوباسطي».. معبد الإلهة «باستت».. (القطة بسبس بلغتنا).. هذا معبد ضخم من معالم الزقازيق المهمة جدًا، صار اليوم أنقاضًا للأسف. الفراعنة كانوا ينظرون إلى القط في إجلال، ويرون فيه مزيجًا من الغموض والرهبة والسحر.

تل بسطة.. عاصمة مصر في الأسرة ٢٢ عهد الملك «شيشنق الأول».. عندما كان الناس يأتون بالقارب عبر فرع النيل لينشدوا ويقدموا القرابين ويحتفلوا ويشربوا كميات هائلة من النبيذ كما قال المؤرخون الإغريق. الخليط المبهر من آثار الفراعنة وآثار الهكسوس.. آثار الدولة القديمة وآثار الدولة الوسطى.. ثم تدمير الفُرس الكامل لهذا كله. كانت تل بسطة كذلك بوابة الشرق للقادمين من سيناء، لذا شرفت بعبور الأسرة المقدسة: العذراء مريم ووليدها المسيح.

وعلى الجانب الغربي من التل هناك الأقبية التي دفنت فيها مومياوات القطط.

كعادة مصر، يمكن لدولة أخرى أن تقيم اقتصادًا كاملًا على السياحة التي يجلبها مكان كهذا.. وكالعادة ليس المكان مستغلًا على الإطلاق، وقد هدم الأهالي ما أبقاه الفرس والزمن.

وسط الأحجار العملاقة الساقطة على الأرض، ووجوه التماثيل



الفرعونية الباقية، وبقايا حضارة مذهلة لم يبقَ منها الكثير، تسمع من بعيد صوت الريح كأنها صلاة الكهنة لـ«آمون».. لا بل «باستت».

الغروب يقترب.. يوم حافل من التصوير وجمع الأخبار قامت به عائشة. هل من حفريات جديدة؟ هل يمكن ترميم شيء؟ إلخ. كنت أرافقها لكني في الحقيقة كنت أتأملها.

عندما صار المكان مقفرًا، ونور الشمس يكتسي بأرجوانية تشي بالاحتضار، بدت لي رقيقة هشة جدًّا.. لقد انهار السور الذي وضعته لنفسي، ولم أعد أتحمل أكثر. كانت تخشى أن أغازلها، وكنت أخشى ذلك، لكن كان هناك واحد آخر هو الذي يتكلم ويتصرف في هذه اللحظة.

أمسكت بيدها بشيء من القوة، وشددتها نحوي، فرفعت نحوي عينيها الواسعتين الطفوليتين، وأدركتْ على الفور أنني مسحور. أطرقت بوجهها وهمست وأهدابها تغطي خديها:

ـ جلال.. أرجوك.. أنا مثلك ضعيفة جدًّا.. يجب أن...

نغمة الهاتف الجوَّال المزعجة.

ـ هلم ردا!

هي أدركتْ أنني سأتجاهل المكالمة، فحمستني. مددت يدي إلى جيبي وأنا ألهث انفعالًا، وألعن المتصل في سري، فسمعت صوت عامر يتكلم.

ابتعدت بضع خطوات، بينما جلست عائشة على حجر ضخم، وراحت تتظاهر بأنها تدون ملاحظاتها.. كانت مشتتة عاطفيًّا، وكنت كذلك.



قال عامر:

- جلال.. كنت أراجع بعض الأوراق، فتذكرت ما حدث لأستاذي العظيم ثروت الرفاعي «أبو عائشة».. كان مهتمًّا أصلًا بطقوس عبادة الأنثى في الأدب القديم، وما بقي منه في الموروث الثقافي.. ذهب منذ عشرين عامًا تقريبًا إلى المغرب، ودرس أسطورة معينة، وفجأة حرق كل أبحاثه وترك البلاد كلها بلا إنذار وعاد إلى مصر.. هناك تزوج وأنجب ابنته. الأسطورة التي كان يدرسها هي أسطورة «عيشة قنديشة».

- «قنديشة؟».

- أي الكونتيسة عائشة.. هذه أسطورة تعود إلى عصر الدولة الأندلسية، ويُقال إنها قاتلت البرتغاليين، وقد أطلقوا عليها اسم «الكونتيسة عيشة».

قلت ضاحكًا:

- إذن أستاذك قرر تسمية ابنته بنفس الاسم تيمنًا.

عاد يقول في إصرار:

- حسب الأسطورة.. عيشة شيطانة تعيش في المستنقعات، أحيانًا تنسج الأكاذيب لتُوقع الرجال مع زوجاتهم.. هنا تتقمص دور سيدة عجوز، ثم تتحول إلى فتاة جميلة ولكنها ذات قدمين تشبهان خف الجمل.. تفتن الشباب وتستدرجهم إلى أماكن نائية ثم تلتهمهم وتمص دماءهم.. هناك علامة أخرى تميز «عيشة قنديشة»، هي خوفها الشديد من النار...

كان يتكلم، وكان الظلام يدنو، بينما جلست عائشة تدوِّن في

دفترها.. رقيقة هشة.. لكن قدميها كبيرتان حقًا ومدسوستان للأبد في حذاء مطاطي.. مشاهد عدة تتداعى في ذهني:

«أشعل صفوت ـ لأنه أحمق ـ لفافة تبغ، فصاحت عائشة في ضيق:

ـ كُف عن هذا! لا أطيق رائحة التبغ!».

«كان يصغي وهو يفتح القداحة ويغلقها في شرود.. يراقب اللهب الوليد ثم يدفنه.. حالته النفسية تتجسد في هذه الشعلة.. سمع المرأة تشهق وتقول:

ـ أطفئ هذه وكلمني!».

«أشعل عامر لفافة تبغ.. تقززت عائشة كعادتها في كراهية السجائر».

«لكن عائشة قالت في ضيق إنها لن تجلس، وابتعدت بسرعة في نوع من الهستيريا التي لم أرَ مبررًا لها».

الحقيقة أن عائشة لا تكره رائحة التبغ، بل من الواضح أنها تكره النار... الآن أفطن لهذا.

عامر يواصل الكلام، بينما الظلام يزحف فوق الحفريات:

ـ أعتقد أن لمياء لا علاقة لها بهذه القصة.. لقد ظلمناها اعتمادًا على مصادفة.. الحقيقة أن الشخص الذي شهد كل هذا كان عائشة. بشيء من الخيال يمكن أن نتصور أن لعنة «عيشة قنديشة» طاردت الأستاذ المذعور ففر من المغرب.. لقد عرف أكثر مما يجب.. جاء إلى مصر فوجد نفسه مرغمًا على أن يُسمي ابنته «عائشة»، وكان على ابنته أن تحمل اللعنة، فتكرر نفس قصة «عيشة قنديشة».. تمارس نفس حياتها.. تخدع الأزواج، وتغرر



بالشباب وتمزقهم.. وواضح أنها استدرجت صفوت البائس إلى المستنقعات. هل تريد رأيي؟ أرى أن تراقبها جيدًا.

أغلقت الهاتف، وابتلعت ريقي، ثم رفعت عيني نحو عائشة.

لم تكن هناك جالسة فوق الصخرة.. ماذا؟ أين ذهـ...

فجأة شعرت بها من خلفي.. متى وكيف جاءت؟ وجهها في الظلام أتبينه بصعوبة، وسمعتها تقول بصوت لا يمت لعائشة الرقيقة بصلة:

ـ سمعتك تقول «قنديشة» بصوت عالٍ.. وكان من السهل أن أسمع باقي المكالمة.. إن صديقك عامر يجيد عمله.. يجيد عمله فعلًا!

* * *

«بوباسطي».. معبد الإلهة «باستت».. الليل الوليد.. الجو يزداد بردًا.. لو لم تمطر الليلة لكان هذا غريبًا.

من خلفي تتضح الحقائق، وإن كنت لا أراها جيدًا، وأدرك أن الحسناء التي شعرتُ بنشوة لأني معها وحدنا في الظلام، ليست حسناء، ليست أنثى أصلًا!!

ـ أنت فهمت القصة كلها.. عرفت ما حلَّ بأبي العظيم.

خُيل لي بالفعل أن هناك شيئًا يحدث في كتلة الظلام الواقفة على بُعد مترين.. إنها تستطيل، ثم تنحني لتفك الحذاء الغليظ المطاطي في قدمها وهي تتكلم:

ـ أحببت أبي كثيرًا برغم أنه كتب عليَّ الوبال، ومنذ جئت إلى العالم كنت أدرك الدور الذي سألعبه عندما أكبر...

بدأت تمشي نحوي، فدخلت قدماها دائرة الضوء. هنا رأيت



السبب في الحذاء غريب الشكل الذي تلبسه دائمًا.. هاتان ليستا قدمين، بل هما... بل هما...

ـ نعم. هذان خفا جمل.. قلها! أنت رأيت هذه الآثار العجيبة في وحل المستنقعات.. لقد كنت آخذهم تحت وهم وإغراء الحب إلى المستنقعات ليلًا، ثم أقوم بما يجب أن أقوم به؟ أنت لم ترَ شيئًا ما دمت لم ترني أتحول إلى «عيشة قنديشة» الحقيقية ببطء.. هذا مؤسف!

كنت أدرك الآن أن عينيها جمرتان حمراوان.. لهذا لا أرى باقي وجهها.. الظلام والظلال وتأثير العينين الرهيب.. الخرائب.. الصمت...

أنا قصة أخرى.

سوف يندهش رجال الشرطة من العثور على جثتي هنا بلا مستنقع. وكيف تنوين تفسير مصرعي، خاصة أن عامر يعرف أنكِ هنا معي؟ مَن يدري؟ على الأرجح سوف تظفرين بعامر كذلك.. هو شاهد خطر.

قالت بصوت غريب:

ـ «ترمينار ميو أميجو !!».

ـ ماذا؟!

ـ «فوسي سابي تانتو !!».

ـ ماذا تقولين؟!

ضحكتْ في الظلام ضحكة مخيفة، وقالت:

ـ لا تنسَ أنني كنت أحارب البرتغاليين، لهذا جعلوا مني أسطورة

مخيفة، ولهذا أجيد لغتهم.. كنت أقول لك إنك انتهيت يا صديقي، فأنت تعرف أكثر مما يجب.

ـ عائشة! أنا أحببتك!

ـ وأنا كذلك! لهذا أريد أن أشعر بك في أحشائي!

كنت أفكر بسرعة، ثم تحسست جيبي فوجدت القداحة.. فلنرَ إن كانت الأسطورة بهذه الدقة حقًّا.. شليك! أضاءت الشعلة، وعندها رأيت وجهها الجديد للمرَّة الأولى.. رباه.. لن أصف شيئًا.. يمكنك أن تتخيل.. فقط لو أن الشيطان تجسد فلن يجد وجهًا أكثر تأثيرًا.

شهقتْ كالحية.. كل مصاصات الدماء و«ليليث» و«لاميا» وسواهن يشهقن كالحيات عندما يغضبن.. تراجعت للخلف في رعب.

هنا أطلقت ساقيَّ للريح.. رحت أثب فوق الصخور وبقايا التماثيل.. محاولة جاهدة في الظلام.

كنت أصرخ لاهثًا بالطريقة اللاهثة المتقطعة التي يصرخ بها شخص مذعور يركض.

وقعت في وهدة، فنهضت ثانية.

أنا أحمق وأبدو مثيرًا للشفقة.

لا جدوى من الفرار.. يجب أن أتوقف وأواجه.. لكن كيف تواجه «عيشة قنديشة»؟ أسطورة قادمة من عصر الدولة الأندلسية، وعبرت القرون والمسافات.. الأب الذي اقترب من الحقيقة أكثر من اللازم ففر وعاد إلى مصر، لكن اللعنة عرفت كيف تجده.

كان هناك منحدر، ومن بعيد أرى كوخين من القش.. يبدو أن



بعض العمال يلتفون حول النار ويعدون عشاءهم أو الشاي.. لو استطعت الوصول إليهم فهذا معناه الأمان، لكن المسافة طويلة جدًّا والظلام دامس.. لن أستطيع قطع المسافة بهذه السرعة.. سوف أقع وتجثم فوقي قبل أن...

ـ «فوسي سابي تانتو !!».

هذه الأغصان الجافة.. ورقة جريدة ممزقة.. أعشاب...

أشعلت القداحة، ثم أشعلت منها ورقة الجريدة، ألقيت بها على الأرض، ثم رحت أشعل الأوراق الجافة والأغصان.. في النهاية صنعت دائرة من النار، ووقفت في مركزها، ورحت ألهث لألتقط أنفاسي.

كانت قد وصلت...

توقفتْ بالفعل عند محيط دائرة النار، وراحت تلهث.

«كنت أحمل ميلًا خاصًّا نحو عائشة... هناك جاذبية خاصة للفتيات الخاليات من الأنوثة.. يمكنك في لحظة بعينها أن تتصور أنها شاب وسيم، خاصة مع شعرها القصير وثيابها العملية.. هي كذلك شخصية جادة، وأنا أمقت الدلال الأنثوي لأنه يختلط بالميوعة كثيرًا».

رباه! لقد تبدلتْ كثيرًا جدًّا! مستحيل أن تربط بينها وبين عائشة القديمة.

كانت تدور حول اللهب وعيناها تتقدان.. كانت تلعق شفتيها المتقرحتين.. كانت تنقل خفي الجمل فوق الغبار...

كانت تقول:

ـ صفوت صديقك كان أحمق.. عندما زرته كامرأة عجوز لم يعرف أن هذه من عادات «عيشة».. شعر بأنه مظلوم.. حاول أن يرتمي في أحضان لمياء، فلما فشل فكر في خوض مغامرة معي برغم أنه يعرف أنك متعلق بي.. كان أحمق وغير مخلص.

هنا نظرت عائشة إلى أعلى.

أنا كذلك نظرت إلى أعلى.

لا أصدق سوء حظ كهذا.

لقد بدأ المطر ينهمر!

وبعين مذعورة رأيت دائرة النار تتوهج في محاولة أخيرة للبقاء، ثم انهمر المطر الغزير، ورأيت «عيشة» ترفع رأسها المبلل إلى السماء وتضحك في جنون، بينما المطر يبلل شعرها.

انطفأت دائرة النار، وصرت هشًّا كطفل...

وثبت إلى المنحدر وتدحرجت.. نهضت ورحت أركض نحو الأكواخ...

كان المطر غزيرًا والرؤية صعبة، لكني رأيتها من خلفي. شققت طريقي بصعوبة.. فجأة صرت على مقربة من الأكواخ، وفجأة مادت الأرض تحت قدميَّ.. هذه حفريات كما هو واضح.. المكان يعج بها.

صرخت صرخة هائلة، ورأيت عائشة تسقط معي في ذات الحفرة السطحية.. المطر يهطل علينا، ولحظات النهاية تقترب.

لكنها كانت تتلوى.. بدا لي أنها عاجزة عن النهوض.. كانت تحاول الزحف ثم تسقط من جديد.. هذا غريب!



كان لديَّ من الوقت ما يسمح بأن أنهض ثم أخرج من الحفرة وأركض مذعورًا.

الرجال الملتفون حول النار وقد صنعوا ما يوشك أن يكون سقفًا يحتمون تحته.. رأوني فلم يفهموا شيئًا.. كدت أسقط في اللهب.

كنت أصرخ في رعب:

ـ الغولة! عيشة! النجدة!

اندفعوا حاملين الشوم والفؤوس إلى حيث الحفرة، وكانت نظرة واحدة كافية ليروا الشيطان الذي يتلوى في قاع الحفرة.. بسملة.. حوقلة...

ـ الله أكبر!

ـ لا إله إلا الله!

وقال أحدهم:

ـ سرداب القطط!

هتفتْ وهي تحاول النهوض:

ـ «جلال.. أيو تي آمي !!».

لم أفهم هذه الجملة.. فقط رأيت الرجال يهبطون إلى الحفرة وينهالون عليها بالفؤوس والحجارة والبصقات.. كانت تتلوى.. ثم بدأت تطلق عواء طويلًا كالذئاب.. وفي النهاية ارتجفتْ وهمدتْ.. لم يبقَ منها الكثير على كل حال.. ووقفنا نلهث تحت المطر...

ما سبب هذا الوهن؟

لن أعرف أبدًا.. لكن للأمر بالتأكيد علاقة بهذا المكان.. مومياوات



القطط المدفونة في سراديب، هل كانت قادرة على إضعاف قواها؟ هل اصطدم سحر «باستت» بسحر «عيشة قنديشة» فانتصرت «باستت»؟

ماذا كانت تحاول قوله لي في لحظاتها الأخيرة؟

جرس الهاتف يدق.. منذ متى؟

مددت يدي إلى جيبي وأنا أحاول التماسك بصعوبة حتى لا يقع من يدي الراجفة.. جاء صوت عامر:

ـ جلال.. أين كنت؟

قلت في غموض:

ـ كنت هنا.

عاد يقول:

ـ استعدتُ ما قلته لك عن «عيشة قنديشة».. يصعب أن أطلب منك تصديق هذا الهراء.. كنت أفكر بصوت عالٍ فقط.. كل هذه خرافات.. أرجو أن تنسى ما قلته لك ولا تظلم هذه الفتاة الرقيقة.. جلال.. لماذا لا ترد؟!



الأخرى

«كانت ناهد تتكلم بثقة، ووضعت ساقًا على ساق، وقالت:

ـ إذن فهذه البلهاء سلوى تأتي لك لتشتمني وتبدد نقودها عندك؟ أراهن أن هذا السيجار الثمين على مكتبك ابتعته بمال أختي!

أدرك دكتور صابر أنها ستكون لحظات عسيرة.. واضح أنها متسلطة فعلًا.. المرأة النمر.

قال لها في صبر:

ـ أختك تعاني من أن شخصيتك تلتهم شخصيتها.. وعليَّ أن أطلب جلسة مشتركة بينكما لأقنعها أنك لا تريدين إيذاءها.

قالت في غيظ:

ـ فلأرد إيذاءها أو لا.. ما دخلك أنت؟ هذه أمور أسرية تمامًا».



تغمض سلوى عينيها مفكرة، وتأخذ شهيقًا عميقًا.. ثمة شيء غير أصيل في هذه الإيماءة. تغمض عينيها وتشهق لتتظاهر أنها من النساء اللائي يغمضن عيونهن ويشهقن. تفاعل هستيري واضح.

هناك في الضوء الخافت الذي يغمر العيادة، وجو الخدر العام.. الجو الذي يغريك بأن تغمض عينيك، وتعترف بأنك اغتصبت «كليوباترا» أو قتلت «كنيدي» لو طلبوا منك ذلك.. هناك في هذا الجو المدوِّخ ترقد سلوى على الفراش تلعب دور المريض النفسي.

في الظلام خارج دائرة الضوء يجلس دكتور صابر محاولًا لعب دور «فرويد».. يدون بعض النقاط، ويترك لتداعي الأفكار الحر أن يخبره بشيء عن مشاكل هذه الفتاة. جميلة لا شك في هذا ـ خطر له ـ لكنها لا تجيد العناية بشعرها فاحم السواد، كما أن ثيابها غير مهندمة، وحالتها النفسية تنعكس إرهاقًا واضحًا على ملامحها.. تلك الانتفاخات والعوينات السميكة التي أصرت على عدم خلعها لأنها



لا تشعر بالثقة عندما تكون شبه عمياء في هذه الإضاءة الخافتة.. هناك سن مكسورة تعطيها نوعًا من الجاذبية الساحرة على طريقة «ناعومي واتس». هو لا يعرف «ناعومي واتس»، لكننا نعرفها، فلا بأس بأن نتبادل معلومة كهذه.

قالت له:

ـ كل شيء كان رائعًا حتى عامين مضيا عندما تُوفِّي أبي.. صرت أعيش وحدي مع ناهد، في بيتنا المنعزل على أطراف البلدة.. ناهد تشبهني جدًّا لكنها تختلف عني نفسيًّا.

قال في برود:

ـ بمعنى؟

ابتلعت ريقها، وقالت:

ـ شخصية قوية هي.. تعرف ما تريد وتحصل عليه.. لهذا استطاعت أن تكون صاحبة الكلمة الأولى في البيت.. نحن لا نأكل إلا ما تختاره هي.. نشاهد برامج التلفزيون التي تختارها هي.. نربي القط الذي اشترته هي.. أثاث البيت هو ما اختارته هي...

ـ وهل هذا الدور لم يكن واضحًا من قبل؟

ـ لا. لقد تضخم وجودها وكاد يزهق أنفاسي.. الأمر يشبه التوائم السيامية عندما ينمو توءم على حساب أخيه.. يتحول الأخ إلى ورم أو أنسجة.. هكذا أنا.. صرت ظلًّا لها، وأحيانًا أشعر أنه لا وزن لي.

فكر الطبيب حينًا، ثم قال لها:

ـ سوف يفيدني أن أقابل ناهد هذه.. ربما أجلس معكما معًا.

اتسعت عيناها في رعب، وقالت:

ـ لا. لا يمكن أن أتكلم أمامها، لكني سأترك لها ورقة فيها عنوانك، لربما تقرر أن تزورك.

ونهضت وهي ترتجف.. أصلحت من شأن ثوبها ونظرت في ساعتها، ثم قالت:

ـ حان وقت العودة للدار.. يجب أن أعد لها طعام الغداء.

ـ هل تعملين؟ وهل تعمل هي؟

ـ أنا سكرتيرة.. هي رسامة.. طبعًا يمكنك فهم أنني من ينفق على الدار، لأنه ما من رسام يستطيع أن يظل حيًّا غير جائع في مصر.

تركها الطبيب تنصرف، ثم راح يدون خواطره بصدد هذه الحالة.. كانت مألوفة أكثر من اللازم.

* * *

عصر اليوم التالي أخبرته الممرضة أن من تُدعى ناهد تنتظره بالخارج.. فتح اللاب توب وسمح لها بالدخول وراح يتأملها.. يحتاج إلى بعض الوقت كي يقابل امرأة تُدعى «ناهد» ولا تملك تلك الجاذبية الأنثوية. هي بالفعل تشبه أختها، لكن شعرها أحمر.. لها عينان خضراوان شرستان.. لا عوينات.. ثيابها أقل من محتشمة حتى إنه فكر أن يطلب الممرضة لتكون معه أثناء المقابلة.. أنثى خطرة.. ثم هذه السن المكسورة.. يبدو أنها وراثية في الأسرة.

كانت ناهد تتكلم بثقة، ووضعت ساقًا على ساق، وقالت:

ـ إذن فهذه البلهاء سلوى تأتي لك لتشتمني وتبدد نقودها عندك؟ أراهن أن هذا السيجار الثمين على مكتبك ابتعته بمال أختي!



أدرك دكتور صابر أنها ستكون لحظات عسيرة.. واضح أنها متسلطة فعلًا.. المرأة النمر.

قال لها في صبر:

ـ أختك تعاني من أن شخصيتك تلتهم شخصيتها.. وعليَّ أن أطلب جلسة مشتركة بينكما لأقنعها أنك لا تريدين إيذاءها.

قالت في غيظ:

ـ فلأرد إيذاءها أو لا.. ما دخلك أنت؟ هذه أمور أسرية تمامًا.

ـ كنت أحسبها كذلك إلى أن طلبتْ رأيي.. لقد أقحمتني أختك في هذه القصة، وعليَّ أن أقوم بدوري.

نظرت إليه، واتسعت عيناها المتوحشتان، وقالت:

ـ جئت لأقول لك إن القصة انتهت.. هي شخصية مريضة كانت تعتمد تمامًا على أبي.. مات أبي.. صارت وحيدة كريشة في عاصفة.. أنا أقود سفينة هذه الأسرة ولسوف أفعل هذا سواء بك أو بدونك!

ثم مدت يدها في حقيبتها وأخرجت مائتي جنيه وألقتها على المكتب:

ـ هذه أتعابك.. والآن أرجو أن تطردها عندما تظهر ثانية.

وقبل أن يرد كانت قد غادرت المكان.

* * *

عندما جاءت سلوى في اليوم التالي، كان يتمنى الخلاص منها فعلًا، لكنه لم يجسر على ذلك. قالت له:

ـ هي فتاة شرسة.. أعرف أنها أهانتك وآذتك.. يمكنك تخيل ما أمر به...

ثم ارتجفت من جديد، وقالت:

ـ سأعترف لك بشيء مخيف.. كل ما أقوله هنا سيظل سرًّا.. أليس كذلك؟ في البدء بدأ القط يتوتر ويعوي.. يطلب الزواج.. كانت تحبه لأنه قطها، لكنه أثار أعصابها، وفي يوم خدرته و... واستأصلت رجولته!

اقشعر الطبيب وهو يسمع هذا.. فاستعاد ما قالته وتساءل إن كان ما سمعه صحيحًا:

ـ ناهد استأصلت خصية القط ولم تأخذه لطبيب بيطري؟

ـ بالتأكيد. ألم أقل لك إن ناهد شريرة؟ المسكين ظل حيًّا بمعجزة ما. بالمناسبة، ما هذه الخدوش في يديها؟ ما السبب؟ نظرتْ إلى بعيد وغمغمتْ:

ـ ثم كان هناك سمير صديقي في العمل.. شاب مهذب رقيق.. أراد أن يطلب يدي.. طلبت منه أن يأتي إلى بيتنا ليقابلها لأنها تعتبر أنها أمي ومسؤولة عني.. لم أعرف أنها دعته للبيت، ولم أعرف أنها قابلته وحدها بينما كنت أنا أزور قريبة لنا في الإسكندرية.

ـ هذا غريب! لن تقولي إنها قامت بإجراء نفس الجراحة له!

ضحكت في مرارة، وقالت:

ـ لا أعرف.. لا أحد يعرف.. لم يظهر بعدها، ولم يعرف أحد أين هو، وقيل إنه ترك العمل بلا إذن. ماذا حدث في تلك الساعات التي أمضاها في دارنا؟ إن لدينا قبوًا ممتازًا، وحول البيت مساحة أرض لا بأس بها، هل يمكن أن يكون هناك؟ لن نعرف أبدًا!

وراحت تتنفس في عصبية، ثم غطت وجهها وتهانفت.. بصعوبة



استطاع أن يخفف من روعها وأن يقنعها بالعودة إلى البيت.. قال لها إنه سيمر على الدار ليلًا ليقابلها هي وأختها وينهي الأمر.

قالت في حدة:

ـ لن تقابل أختي معي أبدًا! إما أنا وإما هي!

ـ سوف أقابلكما معًا!

عندما انصرفت سلوى أخيرًا اتجه إلى اللاب توب الذي وضعه في مكان استراتيجي يسلط عدسته على من يجلس على الأريكة بالضبط. هنا صورة لسلوى عندما كانت عنده منذ دقائق.. وهنا صورة لناهد عندما جاءت أمس.. يضع النافذتين متجاورتين.. الشبه يكاد أن يكون واحدًا.. واحدة شعرها أسود وواحدة شعرها أحمر، لكن منذ متى لا تضع النساء شعرًا مستعارًا؟ العوينات تُغير الشكل بالتأكيد.. ناهد ذات عينين خضراوين.. لم يعد للأنثى لون عينين ثابت منذ ظهرت العدسات اللاصقة! الأسنان المكسورة واحدة تقريبًا.. تغيير الثياب يحدث المعجزات.. الخدوش في اليد وما حدث للقط...

في المساء ذهب إلى العنوان.. مكان مهجور فعلًا.. قرع الباب مرارًا فإذا به ينفتح وتظهر سلوى.. لما رأته امتقع وجهها ولطمت وطلبت منه عدم الدخول، لكنه أزاحها ودخل.. ثمة قط حزين ينظر إليه في ريبة.

قال لها:

ـ أين ناهد؟

ـ هي ليست... ليست هنا!



قال في ظفر:
ـ ولن تتواجد معك أبدًا في مكان واحد لأنكما نفس الشخص.. القصة مكررة ومملة أكثر من اللازم.. هناك جزء من شخصيتك يعاني الكبت والتهميش، ثم قرر أن يتحرر ليصير فتاة مسيطرة شريرة.. على الأرجح تمارس أعمالًا لا تعرفين عنها شيئًا.. الفصام.. الشخصية المزدوجة من أعراض الهستيريا، لكنها ليست معبرة عن «السكيزوفرنيا» كما يعتقد الناس، وأنت هستيرية.. أعتقد أن لديك في غرفتك ثيابًا خليعة وعدسات ملتصقة خضراء.. ولا شك في أنك من أجريت جراحة القط المؤلمة ولربما جراحة الشاب الذي أُعجب بك.

ثم أردف:
ـ العلاج النفسي سوف يجدي.. لكن عليك الاعتراف أولًا بـ....
لم يكمل العبارة لأن المزهرية هبطت على رأسه لتتهشم ويسقط هو على الأرض.

صرخت سلوى في ذعر:
ـ أنتِ قتلتِه أيتها العاهرة!

قالت ناهد وهي تركل الجسد الساخن:
ـ ما زال حيًّا.. وما زال صالحًا لجراحة كالتي أجريتها لسمير وكل من يأتي من طرفك.. إنه غبي كالعادة.. رأى الكثير من الأفلام السخيفة، وقرأ روايات تافهة، وامتلأ رأسه بالهراء عن الفتاة التي تتحول إلى شخصية أخرى ليلًا.. هذه هي مشكلة التفكير النمطي.. لم يخطر له أننا شقيقتان فعلًا!

ثم تحسست أسنانها بلسانها، وقالت:

ـ ذلك الغبي سمير لم يفقد الوعي بسهولة يومها.. كسر لي سنًّا فجعلني قبيحة مثلك تمامًا، لكنه الآن ينام في سلام في القبو، وقد حان الوقت كي يظفر بصديق!





عشر علامات

«هذا ليس بشيء.. لست من الطراز المتشكك الذي يتظاهر بالذكاء، ويتشمم حجارة الطرقات.. لكن اجتماع خمس علامات غريبة أمر يثير الريبة. في معظم الأمراض الطبية تكون هناك علامات كبرى وعلامات صغرى.. ثلاث علامات كبرى مع علامة واحدة صغرى تكفي للتشخيص مثلًا. هنا خمس علامات كلها كبرى على ما أظن.. لكن هذا لا يعني أن جيرانك موتى أحياء.. تحتاج إلى أدلة أقوى».



لا أحد في الخارج.

الحديقة خالية، فقط هناك ذلك الكشاف الواهن الذي يلقي نورًا باردًا على الكلأ.. صوت صراصير الحقل وضفدع ذكر يغازل أنثاه الفاتنة في مكان ما.. السيمفونية المحتومة لليل الربيع.. هالة غامضة حول الأضواء كلها كتلك الهالة التي يصفها أطباء العيون ويراها مرضى «الجلوكوما» قبل أي أعراض. ألقي نظرة عبر ستار النافذة. أنا مطمئن لأن رأفت بالخارج.. سوف يطلق صياح البومة لو سمع أو رأى شيئًا مريبًا. لماذا صياح البومة؟ لأنهم يفعلون هذا في كل القصص. رأفت لم يسمع بومة من قبل، والحقيقة هي أنني لم أسمع أيضًا.. المهم أنه سيحدث ضوضاء غريبة لو رأى أحدهم قادمًا.

الشعور الرهيب بأنك في بيت غير بيتك، وأنك غير آمن.

المشكلة هي أن القبض عليَّ واستدعاء الشرطة، بعد تلقي العلقة إياها.. هذا السيناريو هو الأفضل والأكثر رفقًا بي، لكن أستبعد أن يحدث معي.. أعتقد أن أقرب السيناريوهات للواقع هو ألَّا أرجع

لرأفت. يظل طيلة الليل يتساءل ثم يعود إلى داره مع الصباح.. وبعد هذا لن يسمع عني أبدًا.

تنهدت ورحت أفكر في المخاطرة التي أقوم بها.

الفكرة هي أنني كالفنان، إذا تسلطت عليه فكرة لوحة أو قصيدة أو فيلم، فهو لا يبالي بأي معاناة أو تكاليف أو مخاطرة كي يخرجها للنور.. هناك دجاجة بيَّاضة في عقلي لا تكف عن الصياح كي تضع بيضتها، وإلى أن يأتي هذا الوقت فلن أستطيع النوم.

اسمي هو... لا داعي لذكر اسمي الآن.. لن يستفيد منه أحد، كما أنني قد أحكي هذه التجربة في كتابي القادم، لذا لا أريد أن أقدم دليلًا يجعل تعرفي سهلًا.

أعمل محررًا في جريدة متوسطة التوزيع، وأحلم بأن أنشر كتابي الأول الذي سيدوي صداه في كل مكان، لم أكن أعرف موضوعه أو حجمه في البداية، ثم بدأت أحدد هدفي.. هذه المواضيع مثيرة وتروق للجميع، حتى من يسخرون منها لا يقدرون على ألَّا يتابعوا أخبارها.

موضوع كتابي استلهمته من أسرة سمير ناجي غريبة الأطوار، وهي الأسرة التي أتشرف بتفتيش بيتها الآن على ضوء كشاف في هذا الظلام الدامس.

هذا الموضوع هو «عشر علامات تدلك على أن جيرانك موتى أحياء».

هذه دراسة غريبة.. أنت لم تتوقع عنوانًا كهذا قطعًا، لكني أعرف ما أقول جيدًا، وقد كوَّنت قرائن واضحة على كلامي، ولسوف أشرح لك حالًا.



العلامة الأولى: «يأتون من لا مكان»

خذ عندك هذه الأسرة مثلًا.. سنوات من الحياة في ذلك الحي، وذلك البيت الواقع أمام بيتي خالٍ تمامًا.. يمكنني أن أرى من نافذة غرفتي في الطابق الرابع فناءهم، والبيت الصغير الذي يتكون من طابقين.. مكان مثالي للتلصص ومعرفة كل شيء، لهذا يطلق الناس على هذا النوع من البيوت: «بيوت مجروحة».

لم يكن فيلًا بالضبط، بل هي بناية لها حديقة صغيرة حولها.. هناك أرجوحة أطفال متداعية دمرتها عوامل التعرية، وسيارة عتيقة صدئة حال لونها ولم يبقَ فيها إطار أو قطعة زجاج واحدة، وهي من طراز السيارات التي تعتبرها القطط والكلاب فندقًا ومستشفى ولادة، ويبدو أنه كان هناك حمَّام سباحة بمساحة سجادة غرفة نومك، لكنه صار مغمورًا بالنباتات الشيطانية والتراب.. كل شيء يشي بمكان صغير بهيج، لكنه كان كذلك في الستينيات مثلًا.. لربما كبر الأبناء وتركوا البيت أو سافروا إلى الخارج بعد وفاة الأبوين، ولربما ما زال البيت مملوكًا لوريث ما في بلد ما.. لا أدري. بالطبع كانت هناك مغامرة دائمة لأولاد الحي عندما تسقط كرتهم خلف السور فيضطرون للتسلق وجلبها من الفناء.

فجأة ظهرت أسرة سمير ناجي.. أب وأم وثلاثة أبناء؛ هم مراهقان وطفلة، يدخلون ويخرجون ويتعاملون كأنهم كانوا هناك منذ زمن. على الباب وُضعت لافتة صغيرة تحمل اسم «مهندس سمير ناجي - ١٤ شارع الحرية». الرجل أشيب الشعر، في الخمسين من عمره، يدخن بكثافة، متأنق وشديد النحول.. الزوجة أرستقراطية الطابع،

لها شعر قصير يتخلله الشيب.. الأولاد هم الأولاد في كل زمن.. لم يتعاملوا مع أحد من الجيران قَطُّ.. لا يزورهم ساعي بريد أو كوَّاء أو محصل كهرباء.. لم نرَ الزوجة تتسوق، لكن الأولاد يلهون في الحديقة من وقت إلى آخر.

استبد بي الفضول، فسألت عنهم كل بواب في الشارع.. لا أحد يعرف عنهم أي شيء.. الزوجات الثرثارات «الحشريات» في شارعنا لا يعرفن أي شيء. أمي تعشق التدخل فيما لا يعنيها، وبرغم هذا لم تعرف عنهم أي شيء. في الغرب يمكن أن تقرع باب جارك وتقول له إنك «جون كوكس» الذي يعيش في الناحية الأخرى، فيسمح لك بالدخول والجلوس وشرب الشاي.. من الغريب أننا أكثر حرارة ومودة منهم، لكن هذا السلوك غير شائع عندنا.

كان هذا فضولًا عاديًّا مني، لكنه لا يعني أي شيء.. لو كنا سنشك في كل الأشخاص المتحفظين فلن ننتهي أبدًا، لكن تبقى حقيقة أن هذه الأسرة جاءت من لا مكان بالمعنى الحرفي للكلمة.

هنا ننتقل إلى العلامة الثانية...

العلامة الثانية: «الخواص الفيزيائية غير المعتادة»

أخي هو أول من لاحظ هذا.. كنا في وقت الغروب.. الشمس تنحدر وراء بيتهم، وتحرق عيوننا عندما ننظر نحوهم من نافذتنا الجارحة.. في الشارع استطالت ظلال الكائنات والأشجار والقطط لتزحف إلى الجانب الآخر: جانبنا. وكان الأب يمشي مع طفلته.. المهندس سمير ناجي يمشي مع ابنته عائدين إلى البيت.



كان أخي ينظر من النافذة متلصصًا، وفجأه قال لي:

ـ غريب!

ـ أي شيء غريب؟

ـ لا أرى ظلًّا لهما.. كل الناس لهم ظلال طويلة.. أين ظلهما؟

نظرت من النافذة.. بالفعل هذه ملاحظة غريبة! أنت تعرف المناظر المزيفة بواسطة «فوتوشوب»، عندما يكون المزيف غير بارع، فينسى رسم الظل على الأرض.. نفس التأثير تقريبًا، لكن هذا لا يجب أن يدعو إلى انعدام الثقة. أعتقد أن نصف أصدقائي الأعزاء بلا ظل على الأرض. قرأت قصة قديمة مسلية لـ«هانز كريستيان أندرسن» عن رجل تخلى عنه ظله.. فكرت في هذا بينما المهندس يقرع الباب الخشبي الذي يفتح على الحديقة بمقبض نحاسي كبير، ومن الداخل يهرع ابنه المراهق ليفتح الباب.. لماذا لا يحمل مفتاحًا معه إذن؟

لكنك لا تستطيع إلا التفكير في الأمر مليًّا عندما ترى أن الكلاب تبتعد عن أفراد هذه الأسرة.. لم تعد القطط والكلاب تنام في السيارة العتيقة.. عندما يمشي واحد من الأسرة جوار قطة في شارعنا فإنها تقوس ظهرها وتصدر فحيحًا شيطانيًّا غاضبًا، أما الكلاب فتضع ذيولها بين أفخاذها وتتراجع.. ربما تنبح، لكنه نوع من التهويش.

كل هذه تفاهات.. أنت لا تشك في شخص لمجرد أن الكلاب والقطط تكرهه.. هذا يحدث في أفلام الرعب السخيفة، لكننا في عالم الواقع هنا.

هذا ينقلنا مباشرة إلى العلامة الثالثة...



العلامة الثالثة: «هم لا يذهبون لمكان»

كان الفضول يعذبني حقًّا لمعرفة شيء عن هذه الأسرة.. كما قلت لك، فإن ما لا تعرفه أمي هو لغز. انتظرت بعض الوقت حتى نظرت من النافذة، فرأيت الزوجة ـ مدام ناجي ـ تغادر البيت مع ابنتها.. كان هذا وقت الغروب تقريبًا، ورأيت الابن الأصغر يغلق الباب من الداخل بجنزير.

ارتديت ثيابي بسرعة البرق، وسرعان ما كنت أتواثب على درجات السلم، إلى أن بلغت الشارع.. استطعت أن أراهما هناك على بُعد خمسين مترًا.. بعد دقيقتين سوف تختفيان عند المنعطف الأيمن. رحت أركض بسرعة كي ألحق بهما، وقد نجحت في تقصير المسافة.

هنا شعرت بمن يوشك على الاصطدام بي.. نظرت إلى اليسار لأجد الزوج قادمًا من لا مكان.. كان الموقف مربكًا بحق.. في عينيه نظرة شك رهيبة.. كان من الواضح تمامًا أنني أجري لألحق بزوجته وابنته.

هززت رأسي محييًا، وتظاهرت بأنني توقفت لأشعل سيجارة. مر بي، وجدَّ السير ليلحق بهما. أما أنا، فصار من العسير أن أواصل الاقتفاء.. لو نظر إلى الخلف ورآني فلسوف يفتك بي.

بعد أيام خرج سمير ناجي مع ابنه.. هذه المرَّة انتظرت حتى ابتعدا، ثم مضيت وراءهما بخطوات حثيثة.. كما هي العادة دخلا المنعطف الأيمن، فلحقت بهما.

كانا يبتعدان، ومن الواضح أنهما لا يتبادلان أي كلام. منحنى آخر

على اليسار سوف يقود إلى الشارع الرئيسي.. يجب أن أسرع حتى لا يذوبا في زحام الماشين في الطريق المزدحم.

كان الطريق الجانبي عبارة عن زقاق ضيق لا أبواب فيه.. لا توجد فتحة مجرور لو خطر لك هذا.. لا يوجد برميل قمامة كبير.. هل لديك تفسير يشرح لماذا لم أجدهما في الزقاق؟ أين ذهبا؟ أعرف أن الزقاق سوف يحتاج قطعه لثلاث دقائق.. لن يصلا إلى الشارع بهذه السرعة! لقد تلاشيا باختصار شديد.

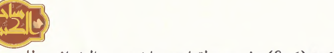
كررت هذه التجربة مرَّتين بعد ذلك، وفي كل مرَّة كانت النتائج مربكة.. في لحظة ما تفقد أثرهم. خطر لي أن ألجأ إلى أساليب الشرطة، بحيث ينتظر صديق لي عند نقطة معينة ثم أرحل ويتولى هو المراقبة، ويسلم الأمر لشخص ثالث، لكني لن أجد أصحابًا رائقي المزاج إلى هذا الحد، سوف يحسبونني مجنونًا.

لو كانت هذه تجربة في مختبر الكيمياء فنتيجتها ببساطة هي: أسرة المهندس سمير ناجي تخرج لكنها لا تذهب لأي مكان. الاستنتاج هو... لا أعرف...

أواصل التفتيش.. الشعاع الرفيع الخارج من الكشاف يسقط على قطع الأثاث.. في كل لحظة أرى شيطانًا يوشك على تمزيقي، ثم أدرك أنه خيالي الخصب.. هناك شيء اسمه «باريدوليا» يجعل مخك يتخيل معنى لأي شكل لا معنى له، لهذا تتحول هذه المنشفة إلى وجه مرعب يتابع حركتي.

هل صوت بومة؟

أعرف أن البومة تقول «هوووووه»... الغربيون يعتقدون أنها



تُنطق «who» (مَن؟) بنفس منطقنا عندما نحسب الخراف تطلب الماء.. هذا الصوت يصلح صوت بومة.. فهل...؟ تصلَّبت للحظات وقلبي يوشك على التوقف. هل يعودون؟ لا بد من فترة كافية كي أتوارى قبل أن أقع في أيديهم.

بعد لحظات أخرى قدرت أنه إنذار كاذب.. لو كانوا قادمين لكانوا فوق رأسي الآن.

هذه غرفة نوم.. يبدو أنها خاصة بالأولاد.. هممم! غرفة نوم أخرى للأبوين كما هو واضح.. هذا يؤكد لي العلامة الرابعة...

العلامة الرابعة: «هم لا ينامون في الأسرَّة أبدًا»

الأسرَّة مرتبة تمامًا، ولا يبدو أن أحدًا كان نائمًا عليها.. الأهم هو أن هناك طبقة غبار سميكة على الملاءات.. الأمر لا يتعلق بسيدة بيت منظمة، بل يتعلق بأسرة لا تنام في الفراش منذ أسابيع ببساطة. أين ينامون إذن؟! لم أرهم يحملون حقائبهم ويتجهون إلى فندق!

كنت قد توصلت إلى استنتاج مماثل من مراقبتي لبيتهم.. تعرف أنني في موضع استراتيجي يكشف لي الفناء وواجهة الطابقين.. لم يكن هناك نور في أي وقت في الطابقين.. بينما النور الوحيد كان ينبعث طيلة الليل من غرفة صغيرة في البدروم.. نوع الغرف التي تُبنى تحت الأرض ولها نافذة تسمح للموجودين برؤية العالم الخارجي. لماذا يضيئون هذه القاعة المفترض أنها خالية؟ النافذة مدعمة بقضبان، وموصدة بزجاج مصنفر.. لكن لربما تمكنت من

الدوران حول البيت وإلقاء نظرة على هذا البدروم.. هذا بالطبع لو لم أستطع دخوله من داخل الشقة.

الاستنتاج الذي توصلت إليه قبل دخولي هنا هو أن هؤلاء القوم ينامون في البدروم. الآن أجد أن الفراش لم يُمس، وهذا يؤكد ما جال بذهني.

ذكّروني أن أحاول الوصول إلى البدروم. أنا متأكد من أنهم جميعًا غادروا البيت، فلن تكون هناك مفاجآت قذرة.. هذا بالطبع ما لم أجد ما يجده كل أبطال أفلام الرعب: توابيت ينام فيها مصاصو الدماء الذين يستيقظون هنا والآن. لكني سأفترض أني محظوظ هذه الليلة.. سوف تبقى رقبتي سليمة.

ماذا يوجد في هذه الخزانة؟

اللعنة! لا داعي للشرح.. هناك آنسات رقيقات هنا، وأنا لا أريد أن أزعجهن، فلنغلق هذه الخزانة اللعينة ونواصل البحث.

بالمناسبة، ماذا يوجد في الثلاجة؟

في أفلام الرعب تكون هناك دومًا مفاجأة لعينة أخرى.. رأس الاستحواذ يكون محفوظًا في الثلاجة غالبًا.. سوف ترى... سوف نرى...

خطوات حذرة نحو الثلاجة في الصالة جوار باب غرفة النوم.

ضع المنديل على فمك حتى لا تفرغ معدتك.. من الغباء أن تتقيأ هنا في دارهم.

هوب....

فارغة.. الثلاجة فارغة.. هذا يذكرني بالعلامة الخامسة...



العلامة الخامسة: «لا يبدو أنهم يأكلون»

لم يرَ أي واحد هؤلاء القوم يبتاعون طعامًا.. ليس هناك بائع خبز يمر على البيت.. ليس هناك صبي قصاب أو بائعة خضر.. بائعة اللبن مندهشة لأنها لا تصدق أن هناك من لا يبتاع اللبن في العالم.. قالت لها أمي إن السبب هو أن لبنها فاسد مغشوش.. قالت البائعة إن عليهم أن يجربوا مرَّة واحدة ليعرفوا إن كان مغشوشًا. دعني أؤكد لك أنهم بلهاء.. لو كانوا موتى أحياء فلسوف يحبون هذا اللبن المغشوش بـ«الفورمالين» جدًّا.

لم أرَ الرجل يحمل كيس خضر أو فاكهة قطُّ، ولم أرَ الزوجة تبتاع شيئًا من أي مكان.. ربما يحدث هذا في أوقات معينة، لكن متى؟ أنا أراقبهم أربعًا وعشرين ساعة يوميًّا بلا مبالغة.. هل يوجد باب آخر؟ بالطبع لا. هؤلاء القوم لا يأكلون.. أعرف هذا يقينًا.

هذا يجعلني أكثر قلقًا.. أنا في بيت قوم لا تعرف من أين جاءوا ولا لأين يذهبون.. قوم لا يتركون ظلًّا على الأرض، ولا يأكلون ولا ينامون.

والألعن لو أنهم عادوا إلى بيتهم في هذه اللحظة بالذات قبل أن يعرف رأفت كيف تصيح البومة!

هذا ليس بشيء.. لست من الطراز المتشكك الذي يتظاهر بالذكاء، ويتشمم حجارة الطرقات.. لكن اجتماع خمس علامات غريبة أمر يثير الريبة. في معظم الأمراض الطبية تكون هناك علامات كبرى وعلامات صغرى.. ثلاث علامات كبرى مع علامة واحدة صغرى تكفي للتشخيص مثلًا. هنا خمس علامات كلها كبرى

على ما أظن.. لكن هذا لا يعني أن جيرانك موتى أحياء.. تحتاج إلى أدلة أقوى.

هذه غرفة مكتب مظلمة.

قلبي يتواثب وأنا أدنو من الباب.. أفتح المقبض في حذر.. غرف المكتب دائمًا مخيفة.. هناك على المكتب ستجد ذلك التمثال الوثني أو كتاب «إينوخ» أو أي شيء مرعب آخر.

لكن الغرفة في ضوء الكشاف كانت هادئة ساكنة تراقبني في شيء من السخرية، وهناك طبقة الغبار التي تغطي كل شيء.. سوف أترك أثرًا لا بأس به لكل عين فضولية.. فيما بعد سوف تكثر الأسئلة.

ترررررررررررررررررررررررررن!

وثبت كمن صعقته الكهرباء في الهواء.. احتجت لعشر دقائق كي أتذكر أن هذا هاتف.. لا أعتقد أن هناك أي أسلاك هاتف تصل إلى هذا البيت، ويبدو أن هذه علامة جديدة.. الهاتف الذي لا يتصل بسلك وبرغم هذا يدق. طبعًا أتوق للرد لكني لست بهذه الحماقة.

ترررررررررررررررررررررررن!

مُصر على تحطيم أعصابي كما هو واضح. الأروع أن يدخل أحد الغرفة ليرد، ويتضح أن هناك من كان نائمًا في البيت برغم كل شيء.

ترررررررررررررررررررررررن!

لقد توقف أخيرًا وهذا رائع.. يجب أن أعمل بسرعة.. هذا فضول مبالغ فيه، لكني أريد أن أعرف.. ثمة غرفة يكمن فيها التفسير الكامل حتمًا. هذه الصورة على المكتب تُظهر الأب وأولاده والزوجة..

يقفون في حديقة حيوان على الأرجح ويضحكون.. هذه الصورة تتفق والعلامة السابعة.

ننتقل الآن إلى العلامة التالية.

العلامة السادسة: «لم يوجدوا»

من المفيد أن يكون للصحفي صديق مهم في المباحث.. أنت تعرف عملية المنفعة المتبادلة هذه، مثل التمساح وطائر الزقزاق: الأول يظفر بطعام سهل، والثاني ينظف أسنانه بلا جهد. هكذا أمد أنا الضباط بشهرة معقولة ويمدونني بالأخبار. الصديق في المباحث سمع قصتي ووعدني بأن يجد لي المهندس سمير ناجي هذا.. يحتاج الأمر إلى بعض التفتيش في سجلات المهندسين والمهندسين الزراعيين.. بعد أسبوع من البحث أكد لي أنه لا يوجد في مدينتنا سمير ناجي بالتأكيد.. من المحتمل أنه ليس مهندسًا وقد انتحل هذا اللقب.. ولربما هو وافد من محافظة أخرى.

قال لي إنه كان هناك مهندس يحمل هذا الاسم في نفس الحي، لكن هذا كان في الستينيات أو السبعينيات.

لم أولِ اهتمامًا كبيرًا لهذه المعلومة، لكنك تعرف كما أعرف الآن مدى خطورتها.. هل يكون هو نفس المهندس؟ هل هذا جائز؟

نحن نتحدث عن مهندس لم يوجد.. جاء من لا مكان...

إن الأمر يزداد بهجة...

تُرى هل رأفت قد نام؟



العلامة السابعة: «كل صورهم عتيقة»

الصورة التي وجدتها في المكتب أغرتني بمزيد من البحث: صورة للأب وصورة زفاف مع الأم. مستحيل أن يكون هناك تفسير آخر.. الصور قديمة جدًّا وبالأبيض والأسود أو الزيتوني.. سطحها خشن.. كل شيء فيها يتحدث عن الستينيات.. الثياب.. الوجوه.. طابع الصور.. لفافة التبغ المتدلية من ركن الفم.

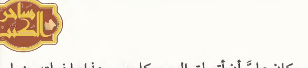
لكن وجوههم معاصرة جدًّا.. كل شيء يدل على أنهم لم يشيخوا عما كانوا في الستينيات ولم يكبروا.. لقد ظلوا في هذه السن للأبد.

كل شيء يقول إن هذه الصور ظلت في مكانها منذ الستينيات حتى اليوم.

القصة توشك على الاكتمال عن الأسرة التي عادت إلى بيتها من جديد.. عادت بعد الموت على الأرجح. لكن هذه القصة تحتاج إلى شيء.. لمسة أخيرة تؤكدها.. هذا يشبه المتلازمة كما يعرفها الطب.. هناك أعراض في العين.. أعراض في القلب.. أعراض في الجهاز العصبي.. أنت تشك، ثم تأتي اللمسة الأخيرة التي تجعلك تدرك أن هذه متلازمة مرضية لها اسم.

أنا أبحث عن هذه اللمسة الأخيرة وهي مخاطرة حقيقية.. لهذا راقبت عادات هذه الأسرة جيدًا، وعرفت متى يفارقون البيت، ثم حدثت رأفت بهواجسي.

من السهل أن تتسلل إلى البيت نفسه، فأنا أعرف عاداتهم، وأعرف أين يخبئون مفتاح الباب تحت الممشاة، فهم لا يرون ما أراه من علٍ. من أسفل تعتقد أن سرك في أمان، أما عن العبور لداخل الحديقة فهو



الجزء الأعقد، وكان عليَّ أن أتسلق السور كلص.. هذا ما فعلته بينما يقف رأفت عند قمة الشارع يراقب.

وهكذا مررت لأول مرَّة بتجربة الدنو من أشياء كنت أراها من علٍ ومن نافذة داري الوقحة.. الأرجوحة.. حوض النباتات.. السيارة العتيقة الخربة.. حبال الغسيل.

ثم أدخل إلى سر الأسرار الرهيب.. منزل أسرة ناجي.. توقع كل شيء يا صاحبي...

أما عن العلامة الثامنة، فهي مثيرة للدهشة فعلًا...

العلامة الثامنة: «هم لا يموتون»

هذا المشهد لم أره، لكن وصفه لي بائع الصحف.. كان يمر في الشارع مناديًا ببضاعته الكاسدة في زمن الإنترنت، ثم توقف عند قمة الشارع ليشكو الزمن ويشعل لفافة تبغ.

هنا رأى صبيين يتسابقان.. الصبي الأول يتواثب ويبدو أنه قد وجَّه ضربة قوية للثاني وهو يهرب من انتقامه.. كان يجري كالشيطان، ويقفز فوق الطوب ومضخات الحريق، بينما أخوه أقل لياقة منه يركض خلفه في غيظ وقد احمر وجهه.

تقاطع الشارع.. المشهد المألوف للطفل الأول يركض وهو ينظر خلفه، وهنا يدوي صوت نفير وصوت فرامل طويل، ثم ارتطام مرعب.. طار الصبي للأمام بينما واصلت السيارة اندفاعها، ثم هوى الجسد على الأرض فمرت العجلة الأمامية عليه.

أخيرًا توقفت السيارة، وبائع الصحف لم يصدق أنه رأى ما رآه..



ومن السيارة وثبت امرأة مذعورة باكية تلطم خديها عالمة أنها انتقلت في لحظة من خانة «السائقة المتعالية» إلى خانة «القاتلة المستهترة».. لقد تغيرت حياتها للأبد.

لكن بائع الصحف كان على استعداد لأن يشهد أن الصبي رمى بنفسه أمام السيارة رميًا.

وفجأة أمام العيون المذهولة نهض الصبي.. تحسس ظهره كأنه يتألم، ثم فرد ساقيه ونهض.. على وجهه علامة ألم.. معجزة أن يظل من أصيب في حادث كهذا يتألم.

لحق به أخوه فتحسس جسده، ثم وضع ذراعه على كتفه ليبتعدا.

سألت المرأة في هستيريا:

- إنت كويس؟

لم يرد. ابتعدا عائدين إلى شارعنا. وأدرك بائع الصحف أنهما متوجهان إلى البيت الذي نعرفه.. كان يعرف البيت ويعرف الأسرة، لكنه لم يتوقع بالطبع أن يشتروا صحفًا منه.

طرقا الباب، فانفتح وغابا بالداخل. كأن هذا شيء طبيعي جدًّا. توقع أن يخرج أب غاضب أو أم ثائرة تبحث عن سائقة السيارة، لكن كل شيء انتهى. الشخص الجدير بالعلاج كان سائقة السيارة نفسها.

هناك حادثة أخرى مماثلة سوف أحكيها لك، لكن صبرًا حتى أتأكد من أن هذا الضوء ليس من سيارة تقل الأسرة.. هم لا يملكون سيارة، لكنهم يستعملون سيارات الأجرة من وقت إلى آخر.

ابتعد الضوء فلنعد إلى قصتنا.. العلامة الثامنة...

ذات مرَّة كانت هناك مطاردة مروعة في شارعنا بين بلطجي



وتاجر مخدرات معروف، وبين رجال الشرطة.. هذه حادثة شهيرة جدًّا لن ينساها كل من عاش في شارعنا، والكل يؤرخ لها.. يوم ١٩ فبراير صار مناسبة قومية لدينا. شارعنا أقرب للهدوء، وأغلب من فيه يعرفون بعضهم البعض، لذا لم نتصور قطُّ أن «جابر هَبو» أحد لوردات المخدرات الهارب من الشرطة، قد استأجر شقة مفروشة في البناية المجاورة لنا.. عندما جاءت سيارات الشرطة وبدأ المخبرون يتسلقون الدرج، كان «هَبو» ورجلاه قد وثبوا إلى سطح البناية المجاورة.. لا بد أن شخصًا تعسًا ما قد وشى به.

لم نكن نعرف أنهم مسلحون ببنادق آلية، وأنهم خطرون لهذا الحد.. كان الناس قد وقفوا في الشارع يراقبون هذه المباراة، وخرج الباقون يطلون من الشرفات.. الفضول لدى المصريين يقهر أي شعور بالخطر، ولك مثال واضح في كل جسم متفجر يجده رجال المفرقعات.. يتحول الأمر إلى سيرك شعبي.

هنا كشف «هَبو» عن أنه مسعور كالذئاب، مجنون تمامًا.

استطاع عدد قليل منا أن يرى «هَبو» يقف على سطح بناية ويُسدد الرصاص للشارع حيث تناثر رجال الشرطة والمارة.. لم تكن هناك فرصة للتصويب المحكم، بل هو يطلق الرصاص كمن يرش الماء من خرطوم.. البلل للجميع..

راتاتاتاتاتاتا!!

تساقط عدد من رجال الشرطة والمارة، واستطعت أن أرى المهندس سمير وزوجته.. كانا عائدين إلى البيت عندما وقعت هذه المعمعة، وكانا بالضبط في مركز إطلاق الرصاص من علٍ..



لقد تساقط من على يمينه ومن على يساره بينما ظل هو واقفًا وعلى وجهه علامات الذهول. في فيلم ساخر رأيت هذا المشهد من قبل، حيث يلتحم النازيون مع رجال المقاومة الفرنسية.. يطلق أحد رجال المقاومة النار على الجمع المتلاحم فيسقط النازيون فقط! لقد تذكرت هذا المشهد بالضبط.

ماذا عن «جابر هَبو» ورفيقيه؟ ليس هذا موضوعنا.. القصة ليست بوليسية.. لربما قُبض عليهم أو هربوا أو قتلوا.. ليست قضيتنا كما قلت، فهي مجرد حبكة فرعية كما يقول كتاب السيناريو.. ولكن يبقى السؤال عن رجل وزوجته بلغ بهما الحظ الحسن أن يُطلَق سيل من الرصاص عليهما فيظلان سليمين، فقط يبدو عليهما الرعب وينفضان الثياب.

ما معنى هذا؟ معناه ببساطة أن هؤلاء القوم لا يموتون.

أولًا الولد الذي مرت فوقه سيارة، ثم الأب والأم.

ما تفسير هذا؟ أنت لا تموت لسبب واحد؛ هو أن تكون قد مت فعلًا أو أنت شبح.

الآن أفتش الحمَّامات على ضوء الكشاف.

لا يوجد صابون أو شامبو.. لا توجد علامة واحدة على البلل.. هذا حمَّام قوم لا يستحمون أبدًا! بصعوبة فتحت الصنبور، فتدفق منه ماء عصبي فائر لونه كالكولا.. فلتُقطع يدي إن كان هذا الصنبور قد فُتح منذ أعوام!

ربما كان هناك حمَّام آخر في الطابق الثاني.. من الوارد أنهم لا يستعملون هذا الحمَّام. على كل حال لقد أنهيت تقريبًا تفقد

هذا الطابق باستثناء البدروم.. سأنتظر قليلًا قبل رؤية الطابق الثاني.. أخشى هذه اللحظة لأنني سأكون محاصرًا فعلًا.. لو جاءوا فلن أستطيع النزول.

تُرى ماذا يفعل رأفت الآن؟

ننتقل الآن إلى العلامة التاسعة، وهي بالغة الأهمية...

العلامة التاسعة: «الشهود يختفون»

هذا هو ما يخيفني من سيناريو أن يجدوني فجأة في دارهم. القصة تتحدث عن طفل يُدعى «باسم».. كان يلعب الكرة مع رفاقه، ثم طارت الكرة لتنزل في حديقة هؤلاء القوم وتصطدم بسقف السيارة الخربة. هذا السيناريو يتكرر كثيرًا...

يقول الصبية إنهم جميعًا قرعوا البوابة عدة مرَّات بلا جدوى.. فقدوا حماسهم وتفرقوا، وقرروا أن يجربوا استعادة الكرة عندما يظهر واحد من الأسرة. يخيل لي من اختفاء باسم الغامض والعثور على فردة واحدة من حذائه قرب سور البيت، أنه حاول أن يتسلق السور ليأتي بالكرة.. هذا يحدث كثيرًا كذلك، لكنه كان يحدث قبل ظهور الأسرة.. ثم إنه من الوارد أن يكون قد تمادى في حملته الاستكشافية. لم يعرف أحد ما حدث، وأعتقد أن رجال الشرطة سألوا عنه أهل الدار بشكل روتيني، وبالطبع قيل لهم بشكل روتيني إنهم لم يروه.. لكني أنا وأنت نعرف أنهم رأوه، رأوه جدًّا لو كان هناك شيء كهذا.

أنت تعرف ما وجدته في الخزانة.. لم أخبر الفتيات طبعًا، لكنك تعرف ما وجدته.. هذه عظام طفل. لربما سكن في هذا البيت من



كان يدرس الطب يومًا، ولربما ترك العظام عندما غادر البيت، لكني أرى أن هذا احتمال بعيد.. أقرب احتمال هو أن هذه عظام باسم.

سأتجنب هذا الجزء كي لا أضايق رانية ورشا وهيام و... و... اللاتي يستمعن إلى قصتنا، وسوف أثب إلى الجزء التالي مباشرة.

يجب أن أرى البدروم...

المكان الوحيد المضاء ليلًا، وهو ما ينقلنا لسؤال مهم: لماذا يحتاج الموتى الأحياء إلى الضوء، خاصة إذا ما كانوا ينامون في ذات المكان؟ لا أعرف.

على كل حال، كانت هناك درجات هبطت عليها على ضوء الكشاف.. رائحة عطنة قوية.

الضوء منطفئ.. لا أجرؤ على أن أضيء أي شيء على العموم، لكن من الواضح أنهم يعيشون هنا.

أقف عند قمة الدرجات، وأمسح المكان على ضوء كشاف.. هناك صناديق فعلًا، لكن حجمها لا يسمح بوجود جثث.. لن ينهض أحد على طريقة أفلام «هامر» ليفتك بي.

لكن المشكلة الحقيقية هي وجود حفر في الأرض الترابية.. حفر عميقة.. من الواضح أنها خمس.. هناك رفش جوار الحفر.. هل هناك من أخرج خمسة أشياء من الأرض؟ متى؟ وما كنه هذه الأشياء؟

لو تركت لخيالي العنان لقلت إن هؤلاء القوم كانوا مدفونين هنا. ومَن أخرجهم إذن؟

واصلت الهبوط في ضوء الكشاف، والأفكار تتدافع كموج البحر...

هذه أسوأ لحظة ممكنة كي تكون هناك درجة مكسورة، وكي تتعثر ويلتوي كاحلك، وكي تتدحرج لتسقط على الأرض وسط التراب...

الألم لا يوصف ولا يُصدَّق.. هذا تمزق في أربطة الكاحل على الأرجح.. يمكنني أن أرى التورم في ضوء الكشاف.

هل أسمع صوت بومة؟

لا فارق هنالك.. بومة أو لا بومة.. أنا سأظل هنا يا رأفت.. لن أستطيع الحراك إلى أن يعود أفراد الأسرة الكريمة الذين تنطبق عليهم تسع علامات من علامات الموتى الأحياء!!

* * *

مرت عشر دقائق في هذا الوضع البائس، وأنا أحاول أن أرغم قدمي على الحركة، لكن الكاحل يزداد سوءًا.. علامات الالتهاب الخمس التي يعرفها الأطباء: «الاحمرار، التورم، السخونة، الألم، فقدان الوظيفة»، كلها تنطبق هنا، وتذكرني بعلاماتي التسع.

ربما لو حاولت الزحف...

للمرَّة الأولى مددت يدي لجيبي وأخرجت الهاتف المحمول.. هذا هو الوقت المناسب، لكني لا أحمل ثقة أو حبًّا نحو الهواتف المحمولة، وهي كذلك تكرهني، لهذا تتخلى عني دائمًا عندما أريدها.. عندما يتصل بي ابن خالتي ليشكو تغيُّر عاداته في التبرز، وأنه لم يعد يُخرج قطعًا متماسكة، فإن الهاتف يعمل بدقة مذهلة.. لكن عندما أرى حادثًا مروعًا وأتصل بالجريدة من أجل سبق صحفي، يتحول الهاتف إلى قطعة بلاستيك بلا منفعة. نسيت أن أقول كذلك

إن الشبكة سيئة جدًّا في منطقتنا.. فإذا أضفنا إلى هذا أن البيت ملعون أصلًا، وبالتأكيد مشحون بكهرباء الأشباح الاستاتيكية، فإن بوسعي أن أقول لك إن الهاتف...

لا توجد شبكة.. فعلًا.. كما توقعت.

رباه.. لا حل سوى الزحف كما قلت لك.

في النهاية قد لا تكون تسع علامات كافية.. فلآمل أن أكون حمارًا أو غبيًّا.

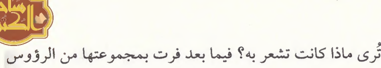
كنت على أرض البدروم.

كما قلت لك، من المعتاد أن يكون البدروم مضاء، لكنه مظلم هذه الليلة، ومن الواضح أن هذا سبب سقوطي.. سمعت شيئًا يتدحرج على الدرجات، فخطر لي أنه فأر بدين.. هذا أسوأ شيء يمكن تصوره.. ليس ألعن من الفئران سوى...

سوى هذا الشيء الضخم الذي تدحرج ليسقط على بُعد متر مني.. يشبه بطيخة متوسطة الحجم لكنها لم تتهشم مع سقطة كهذه.

وجهت الكشاف نحو الشيء.. ولم أُصدِّق.. لا.. لم أُصدِّق...

هذا الوجه.. وجه رأفت ينظر إليَّ بعينين شاخصتين.. الوجه الذي كف عن تلقي الأوامر من المخ فتدلى لحمه.. رأس مقطوع ملوث بالدم على بُعد متر مني.. وهذا الوجه هو وجه صديقي. فيما بعد ـ بعد زوال الصدمة ـ سأتذكر شعور مدام «توسو» النبيلة الفرنسية فنانة تماثيل الشمع، عندما كانوا يحضرون لها كل يوم رأسًا أو رأسين من وجوه أصدقائها في سلة، بعدما أطاحت به المقصلة، كي تصنع له تمثالًا من الشمع، كان هذا هو الثمن الوحيد كي تحتفظ برأسها هي..



تُرى ماذا كانت تشعر به؟ فيما بعد فرت بمجموعتها من الرؤوس الشمعية إلى إنجلترا.

ليس هذا وقت الحكايات التاريخية طبعًا.. أنا في القبو عاجز عن الحركة، بينما رأس صديقي الذي ـ بالتأكيد ـ لن يطلق صياح البومة بعد اليوم، على بُعد متر مني.

مَن ظفر به؟ هم طبعًا، أسرة المهندس اللطيف سمير ناجي. لو كان أي سفاح قد قتله لما استطاع رمي رأسه في البدروم.. إنهم هنا.. أعلى الدرجات. كنت أرتجف، وأعتقد أنني فقدت وعيي ثلاث دقائق أو أقل.

هنا وجدت أنني أمام العلامة العاشرة المؤكدة...

العلامة العاشرة: «أن يجدوك ويعترفوا بأنفسهم أنهم موتى أحياء»

هذه أقوى علامة في رأيي، ويمكن وحدها أن تكفي للتشخيص.

سمعت صوت الخطوات من أعلى، ثم ظهر أولهم عند باب البدروم، وبدأ يهبط الدرجات في تؤدة.. كان هذا هو المهندس.. ثم ظهرت الزوجة.. فالصبيان.. فالفتاة الصغيرة.

أضاءوا نور البدروم، فرأيت كل شيء في الضوء الساطع لأول مرَّة.. أراه من مكان منخفض لأنني على الأرض.. الحفر الخمس.. الصناديق.. زجاجات فارغة يغلفها نسيج العنكبوت.. دراجة صدئة عتيقة.. حقائب بالية لا بد أن فيها شهادة تخرُّج الجد من مدرسة السلحدار الثانوية، أو «فرمان» من أفندينا ولي النعم.. مقاعد مهشمة...

كنت أرتجف كفأر في مصيدة، لكن لم يكن هناك «إندورفين»

يخفف من هول المصيبة. أين أنت أيها «الإندورفين» عندما نبحث عنك...؟

كانوا يحيطون بي.

قلت لنفسي إن جُل ما أطلبه هو أن يتم كل شيء بسرعة.. كلما تم أسرع كان الألم أقل.. أعتقد أن ميتة رأفت كانت سريعة مريحة. رب بحق ما سيصيبني الآن من ذعر وألم قبل موتي، فلترحمني من أهوال يوم القيامة.

ساد صمت رهيب.. طلبت من قلبي أن يهدأ قليلًا لأتمكن من السماع.

ـ الآن أنت تعرف.

للمرَّة الأولى أسمع صوت الرجل الذي كنت أراقبه منذ أشهر.. ليس غليظًا أو مخيفًا، بل هو أقرب للحزن والوقار.

أردف قائلًا:

ـ نحن لم نفارق البيت قَطُّ.. كنا هنالك في الصندرة طيلة الوقت ننتظر، ثم خرجت أنا لأعنى بصديقك.. كنا نعرف أنك قادم وتعمدنا ترك المفتاح لك.

ارتجفت.. رأفت رآهم يخرجون.. لا شك في هذا! إما أنه واهم أو هم يملكون القدرة على صنع هلاوس بصرية! الحقيقة المروعة هي أنني كنت طيلة هذا الوقت في بيت واحد مع أسرة من الموتى الأحياء!

قالت الزوجة بنفس الطريقة المهذبة الراقية:

ـ أنت اقتربت من الحقيقة جدًّا.. أسرة المهندس التي تعيش حياة



هادئة انطوائية في هذا الحي منذ الستينيات.. مشاجرة عنيفة مع العم الذي يريد شراء البيت.. يفقد العم أعصابه ويطلق الرصاص على زوجي ـ أخيه ـ ثم أنا، ثم يضطر لقتل الأولاد لأنهم شهود خطرون، بعدها يدفن الجميع في البدروم ويفر من البلاد، عالمًا أن أحدًا لن يفتقدهم بسرعة، بل سيحسبهم هاجروا.. فقط يكلف محاميًا بأن يتولى أمور البيت الرسمية، ثم يموت في الخارج بعد عام ويدفن سر البيت معه.. لا نعرف ما حدث.. بعد خمسين عامًا حدث شيء ما.. ابني أول من تحرر وحررنا بالرفش.. لماذا عدنا؟ لا أحد يعرف. ربما كانت أرواحنا قلقة بسبب الميتة العنيفة.. قيل إن الأشباح بقايا من القوى النفسية لمن ماتوا.. إن من يموت يترك أظفاره وعظامه، وبنفس المنطق يترك قواه النفسية في مكان الموت.. هناك الشبح الجائع للوجود الذي لم يشبع من العالم قطُّ لهذا يُفضل أن يبقى فيه.. لا نعرف حقًا...

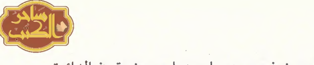
قال الأب:

ـ ما نعرفه هو أنك تدخَّلت في حياتنا أو موتنا أكثر من اللازم، وأنك تطفلت على أملاك خاصة، وأنك يجب أن تتلقى العقاب.

قالت الزوجة:

ـ لن نفعل كما فعلنا مع صاحبك، بل سنجعلك تشعر بما نشعر به.. ستكون واحدًا منا، ولسوف يحاول صحفي فضولي سخيف أن يدرس حياتك يومًا ما.

لم أفهم ما تقول.



رحت أصرخ وأصرخ في هستيريا، بينما هم يضيقون الدائرة حولي...

* * *

أخيرًا أنهيت المقال.

«عشر علامات تخبرك أن جيرانك موتى أحياء».. مقال مهم، ولسوف يكون بذرة لكتاب ممتاز. إن الناس تعشق هذا الكلام الظلامي الغامض الذي لا يمكن التحقق منه. العلم الفورتي (Fortean) سلعة رائجة في كل مكان وزمان.

من الغريب أنني لست جائعًا بعد كل هذا الجهد.. الجهد العقلي يشعرني بالجوع دائمًا. قرأت ذات مرَّة عما كان يأكله الكاتب الفرنسي «بلزاك» بعد الانتهاء من عمل أدبي، فأصابني الرعب.. كمية هائلة من البط واللحوم والقواقع والخمور ثم كميات هائلة من الجبن.

كذلك لا أشعر بحاجة إلى النوم برغم كل هذا التركيز.

خرجت من غرفتي وكان أخي في الصالة.. رأى وجهي فوثب فوق الأريكة.. صاح في رعب:

ـ كيف خرجت من غرفة النوم، ولم تكن في الشقة أصلًا؟! نبحث عنك منذ أسبوع وأبلغنا الشرطة! لا تقل لي إنك مختبئ تحت الفراش منذ أسبوع!

ما هذا السخف؟! كنت جالسًا على مكتبي أدون هذا المقال! عمَّ يتحدث؟!

عندما خرجت إلى الصالة المضيئة وصرت مكشوفًا للنور، رأيته ينظر إليَّ في هلع.. صرخ صرخة مروعة ثم انطلق يجري.

ومن المطبخ خرجت أمي، ولم تبدُ ودودًا جدًّا:

ـ بسم الله الرحمن الرحيم! سترك يا رب! رحمتك يا رب!

دوت صرختها.. لم أرَ في حياتي مثل هذا الوجه المتقلص المذعور توشك عيناه على الوثب.. ثم إنها نظرت إلى السقف وابيضت عيناها.. تراخت ساقاها وسقطت على الأرض.

الويل! هل هي نوبة قلبية؟

جريت وأمسكت بمعصمها فوجدتها تتنفس.. النبض منتظم.. هذا إغماء.

سوف أحضر بعض الماء من الحمَّام وأسكبه على وجهها.

دخلت الحمَّام وملأت الشفشق البلاستيكي الكبير، ونظرت إلى المرآة فوق الحوض.. غريب هذا.. الهلاوس والإرهاق الفكري يوحون لي أن هذه ليست مرآة بل نافذة في الجدار.. على الجانب الآخر شخص يلبس مثلي، ويحمل «شفشق» من البلاستيك مثلي، لكن لحم وجهه متآكل تمامًا، تعبث فيه الديدان، وقد سقط رأسه جانبًا لأن عنقه ممزق لا يتحمل ثقله.. مشهد بشع جدًّا.. أنا مرهق نفسيًّا فعلًا. هناك متلازمة نفسية اسمها «كوتار»، حيث يتخيل المريض أنه جثة متعفنة أو أنه غير موجود.. لا بد أنني مصاب بها.

ذكِّروني أن أطلب رأي طبيب نفسي غدًا صباحًا، لكن لأُسرع بمحاولة إنعاش «الحاجَّة» أولًا.



نادي أعداء مصاصي الدماء

«اسمي «كيث».. عرفت من الشرطة قصتك.. أنت تعرف كما أعرف أن من هاجمتك مصاصة دماء.. مندهش؟ هذا من حقك.. لكن دعني أؤكد لك أن مصاصي الدماء لا يدخلون من النوافذ على شكل وطاويط، ولا يغرسون أنيابهم في عنقك.. إنهم يحقنونك بمنوم ثم يحدثون جرحًا في عنقك بالموسى ويشربون دمك كله.. لا تُصدق؟ ليكن...».



(١)

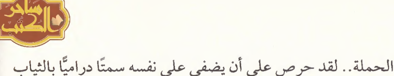
نحن الآن في «دالاس».

الغارة لم تستغرق وقتًا طويلًا، لكن تبعاتها ظلت معلقة لفترة لا بأس بها.

الورشة هناك في الظلام تنتظر، وقد جعلها الترقب تكتسب وجودًا حيًا خاصًا بها، وابتلع «جيريمي» ريقه وهو ينظر إلى المشهد الموجس.. من المستحيل أن تُصدِّق أن ما سيحدث سيحدث.. لقد كانت هذه تجربته الأولى، وبدت له الورشة ميتة جدًا.. هادئة جدًا.. يصعب أن تصير شيئًا آخر.

نظر إلى الرجال من حوله، أولئك الذين خاضوا التجربة عشرات المرَّات، فرأى أنهم جادون بحق.. جادون أكثر من اللازم.. العرق يبلل العضلات المفتولة والقمصان الملتصقة بالأجساد.. وهناك من يتأكد من أن الوتد في غمده.. زجاجات صغيرة هشة تنفجر بمجرد أن تصدم شيئًا.

أما أكثر من أثار هلعه فهو «ك».. جدير هو «ك» بأن يقود هذه



الحملة.. لقد حرص على أن يضفي على نفسه سمتًا دراميًا بالثياب السود التي اختارها، ثم القناع الذي يتدلى من قبعته ليجعل رؤية وجهه مستحيلة.. كان فارع القامة نافذ التأثير.

قال «ك» للرجال من حوله:

ـ مستعدون؟

لم يرد أحد، لكن الإجابة وصلت على كل حال: لو لم نكن مستعدين فماذا نفعل هنا وما نفع كل هذه المعدات؟

ونظر إلى «جيريمي»، وقال بصوت باسم:

ـ وأنت؟ لا نريد فقدان أعصاب!

ابتلع «جيريمي» ريقه وهمس:

ـ لا. لا.

قال بحزم:

ـ لا ماذا بالضبط؟ لا أريد ردودًا مائعة!

شد «جيريمي» قامته، وقال بحزم صبياني:

ـ أردت أن أقول لا فقدان أعصاب.

ـ هؤلاء يشمون الخوف كأنه رائحة الدم.. لا تنسَ أن هذه طبائع الوحوش.. تحكم في «الأدرينالين» لأن له رائحة لا تميزها إلا أنوف كهذه.

صرخة رفيعة جاءت من الورشة، فنظر رجل إلى آخر، صرخة أنثى كما هو واضح، فقال «ك»:

ـ هذا طبيعي.. لسنا في «ديزني لاند».. إنه موعد العشاء عندهم.

ثم نظر إلى ساعته، وقال:

ـ ربما الإفطار!

وانفجر يضحك، كانت ضحكة عصبية لا محل لها من الإعراب، وقد ساهمت في هز ثقة الآخرين بأنفسهم.. ليته يخرس.. ليته يسكت.

هدأ أخيرًا، فنظر إلى حامل المشعل وقال:

ـ أنت أولنا...

ثم التفت إلى الرجال وقال:

ـ لن يكون الأمر سهلًا.. يبدو أنهم يقظون.

وأشار إشارة ذات معنى، فاندفع حامل المشعل باتجاه الورشة، وقبل أن يفهم أحد شيئًا كان قد ألقى بالجذوة إلى الداخل عبر الباب المفتوح.. ولم ينتظر أحدًا ليرى النتيجة لأن الجميع اندفعوا نحو الورشة التي صارت مسرحًا من مسارح «الجران جينيول» المختصة بالرعب المعوي.

هناك فتاة مقيدة على منضدة وسط المكان.. لا بد من واحدة عارية مقيدة في وضع النسر الفارد جناحيه كما هي العادة في كل طقوس الأضحيات البشرية، وكانت تصرخ...

لكن لم يكن هذا هو المخيف في الأمر.. المخيف هو حشد المحيطين بها.. يبدون كبشر عاديين، لكن ما أغرب سحناتهم وثيابهم! وكانوا بعد مذهولين بصدد المشعل الذي تهاوى على أرض الورشة وراح ينثر وباء اللهب من حوله.

إن معلومات «ك» صحيحة.. كل معلوماته صحيحة.

صاح «ك» وهو يصوب مسدسه:

ـ اقتلوهم! لو ظفروا بكم لأفرغوا عروقكم من دمائها!



وأطلق بإحكام بضع رصاصات.. هذه رصاصات فضية ثمينة لا يجب تبديدها.. والأدهى أن من أصابته الرصاصة من هؤلاء سقط أرضًا والدخان يتصاعد من ثقب في جسده.. دخان لا يمت بصلة للكميات المحدودة التي تخرج من موضع طلقات الرصاص، بل هو أقرب لمشهد طائرة تسقط بعد إصابتها.

شاهت الوجوه! تذكر «جيريمي» فيلمًا تلفزيونيًّا رأى فيه الأسود تحتشد في ظلام الليل وهي تلتهم وعلًا، فكان الدم يلطخ أفواهها ووجوهها، وعيونها تبرق في ضوء التصوير الليلي... هذا المشهد يتكرر بقوة الآن.

«هذا طبيعي.. لسنا في «ديزني لاند».. إنه موعد العشاء عندهم».

أخرج أحد الرجال وتده من غمده، واندفع ليولجه في قلب أحد هذه الكائنات المهاجمة.. وفوجئ «جيريمي» المذعور بشخص من هؤلاء يثب من فوق المنضدة التي قيدت لها الفتاة.. وثبة واحدة جعلته على بُعد سنتيمترين من وجهه.. لم يفكر كثيرًا وأغمد الوتد الذي يحمله في قلب هذا المهاجم.

أي صرخة شيطانية أرسلها هذا وهو يموت! من العسير أن يُعلِّق المرء كل هذه الأهمية على حياته.. أي حياة تلك التي تستأهل كل هذا الصراخ؟

وقف «جيريمي» مبهوتًا يرمق المعركة العنيفة الدائرة.

«هاري» يطلق الرصاص.. «ماكسويل» يفجر كرات الزجاج..

«هنري» يغمد الأوتاد.. «مايك» يطلق الرصاص...



رآه «ك» متصلبًا، فصاح به:

ـ «جيريمي»!

وأطلق رصاصة على رأس واحد وثب نحوه من وراء خطاف معلق، ثم أردف:

ـ حرر الفتاة! أسرع بالله عليك!

أفاق «جيريمي» من غيبوبته، فركض نحو الفتاة المقيدة.. كان الدم ينزف بغزارة من عنقها لكنها حية.. حية وإن كان الذعر قد جعلها مسخًا غير آدمي.. أخرج مطواة من جيبه وراح يفك الحبال الغليظة التي تكبلها ثم ساعدها على الجلوس بينما هو يضغط بمنديل على جرح عنقها.. لم يكن طبيبًا لكنه أدرك أنه جرح صُنع بأداة حادة.. لا أثر لأنياب هنا لحسن الحظ.

كاد يساعدها على الترجل عندما شعر بمن ينقض عليه من الخلف.. قوى عاتية تمسك به وتمنعه من الحركة.. التفت للخلف وهو يشم رائحة الأنفاس الكريهة لشخص يتمسك به.

سقط على الأرض وهذا الكيان فوقه.. كان يحاول بلوغ عنقه بأي ثمن.

فجأة بدا أن الثقل ازداد ثقلًا.. كف عن الحركة.. إنها تلك الخاصية الفريدة في الجثث التي تجعلها تنجذب للأرض بقوة لا توصف.

تدحرج ليسقط الكائن عن ظهره، وفي ظهره وجد ذلك الوتد مغروسًا.. رفع رأسه فوجد «هنري» يهز رأسه بإيماءة معناها: «أي خدمة».. ثم تركه وانطلق يبحث عن ضحية جديدة.

النار تضطرم وتحاصر كل شيء.



يبدو أن فريقهم قد فقد واحدًا، لكن الغلبة له كما هو واضح.
وفي الظلام، وبشكل ما، راح هؤلاء القوم غريبو الأطوار يفرون الواحد تلو الآخر.

ـ لا تتبعوهم!

كذا صاح «ك» بلهجة آمرة، وأردف وهو يعيد مسدسه إلى نطاقه:

ـ إنهم في الخارج والظلام.. سوف يلعبون لعبتهم المفضلة على أرضهم المفضلة.. لا تتركوهم يقودونكم إلى هناك.

ومشى يعد الجثث على الأرض بصوت عالٍ:

ـ أربعة.. خمسة.. سبعة... لا بأس.. لا بأس.

ثم نظر إلى رجاله وقال:

ـ سوف يأتي رجال الشرطة حالًا.. لا بد أن «دالاس» كلها سمعت هذه الطلقات.. يجب أن نفر الآن.

هنا مد أحد الرجال يده وتفحص معصم أحد الراقدين على الأرض، وقال بلهجة ذات معنى:

ـ «ك».. هلَّا جئت هنا؟

* * *

«جيريمي» لم يكن يعتقد بوجود مصاصي الدماء.

كانت خبرته الوحيدة عنهم هي هؤلاء القوم من ذوي العباءات السوداء الذين يفحون كالثعابين في أفلام الرعب، وكان رأيه هو أنهم أقرب للسخف.

في العام ١٩٧٤، بينما الولايات المتحدة تهتز بفضيحة «ووترجيت»، كانت سلطة الدولة تهتز، والثقة بين المواطن الأمريكي



ورئيسه تتزعزع.. للمرّة الأولى يحدث هذا الطلاق بين الناخب والحكومة، وبدا أن الحكومة الأمريكية لم تعد تلك الحكومة القوية الأمينة محاربة الشيوعية التي كان الناس يظنون في الخمسينيات أنها قادرة على خداع الناس والكذب.. الكذب بقوة...

في هذا الوقت كان «جيريمي» الشاب العامل في متجر البقالة يمارس حياته.. لا يهتم كثيرًا بشؤون السياسة، ولا يعنيه من يحكم الولايات.. يبدو كهيبي بشكله وشعره، لكنه لا يحتج على أي شيء.. كان عنيدًا، وقيل إنه قوي الشخصية وذكي، لكنه لم يكن يملك وقتًا لهذا الهراء.. ليس رائق البال حتى يتفرغ للحكم على نفسه.. إنه موجود وكفى.

ربما بدأ كل شيء في ذلك اليوم الذي طُلب منه فيه توصيل بقالة لبيت في الضاحية التي يقيم بها.. كانت التاسعة مساءً، والمشوار كان طويلًا على الدراجة.. الطقس صيفي جميل يوحي بالحب، أو الحنين للحب، أو الحزن لأنك لا تجد الحب.. المهم أن هناك حبًّا في الموضوع.

القمر كبير يحتل السماء.. يوشك ألّا يترك أي مكان فارغ من حوله.. السماء كلها قرص قمر كبير أحمر، ولا شك أن مشهد الفتى على الدراجة كان يشبه لقطة من فيلم «إي تي»، لكنه لم يكن قد خطر على ذهن مخرجه بعد.

أخيرًا بلغ المنزل الذي وقف وحيدًا وسط التلال المظلمة.. كانت هناك نافذة مضاءة وحديقة غير مهندمة.. لم يكن المشهد محببًا، لكن «جيريمي» في ذلك الوقت لم يكن يعتقد بوجود مصاصي الدماء..



لم يكن يعتقد بوجود شيء على الإطلاق.. لا يوجد خطر أكثر من عصابات الشباب في المنطقة.

مسز «جونز» هي التي اتصلت.

مسز «جونز» هي التي طلبت البقالة.

كانت هناك أغنية شهيرة تقول: «أنا ومسز جونز نتقاسم هذا الشعور.. نعرف أنه خطأ، لكنه شعور قوي جدًّا».

راح يدندن هذه الأغنية بصوت خفيض وهو يقرع الجرس.

ومن الداخل جاء الصوت الناعم المنوم:

ـ ادفع الباب وادخل!

* * *

انحنى «ك» يتفحص المعصم.

كان هناك هذان الثعبانان اللذان يلتفان حول بعضهما، وكل واحد يلتهم ذيل الآخر.. وشم جميل جدًّا.

قال «ك» وهو يتنفس بصعوبة بسبب الحر والقناع السميك:

ـ هذا جديد.. لم أره من قبل.. يبدو كأنه شعار تعارف جديد بينهم.. فلنفحص باقي الجثث.

وراح الرجال يفتشون.. لم يكن الوقت كافيًا إلا لرؤية معصمين قبل قدوم الشرطة.

صوت السرينة من بعيد.. فلنسرع.

حمل أحدهم الفتاة التي لم تعد ساقاها تصلحان لحملها، وقد لفوا جسدها العاري في ملاءة، وحمل آخر جثة زميلهم.

هناك من أفرغ عدة زجاجات من الكيروسين وأشعل لهبًا..

لا شيء كالنار يخفي التفاصيل.. لا شيء كالنار يجعل معرفة ما دار مستحيلة.

كانت السيارات «الفان» تقف هناك تحت الأشجار، وسرعان ما امتلأت.. كان السائقون يعرفون ما ينبغي عمله، وسرعان ما انطلقت السيارات إلى طريق جانبي.

سوف يجد رجال الشرطة مذبحة عجيبة، ولن يعرفوا السبب أبدًا.

سوف نقيم الليلة حفل تأبين لـ«جوناثان».. ميتة فريدة هي أن تستشهد وأنت تقاتل مصاص دماء، لكن «جوناثان» فعل هذا.. فلينل تكريمًا عظيمًا.

كان «ك» مشغولًا.

كان يمسك بمفكرة ويرسم على صفحاتها بخط سريع كروكيًّا لا بأس به لشعار الثعبانين الذي رآه، وقال مفكرًا:

ـ جماعة الثعبانين المتصارعين! اسم موحٍ!

* * *

عندما دخل «جيريمي» البيت سمع مسز «جونز» تقول من مكان ما:

ـ أنا في الحمَّام.

خفق قلبه.. يبدو أن الأغنية صادقة أكثر من اللازم.

ـ أرجوك أن تضع البقالة على المنضدة وتنتظر.

كان البيت من الداخل شبه مظلم.. لا ينيره سوى مصباح واهن في السقف، وهناك أثاث قليل جدًّا.. ثمة رائحة غامضة لن ينساها للأبد.



وضع البقالة كما طلبت، ووقف ينظر إلى الجدار.

كانت هناك لوحة معقدة مليئة بالتفاصيل تمثل وجهًا بشريًا يتمزق.. يصرخ...

بدت له لوحة غريبة فعلًا كي يعلقها المرء، وتوقف أمامها وقتًا طويلًا.. كانت هذه هي اللحظة التي انغرست فيها الإبرة في عنقه.. سقط على الأرض وهو يجاهد لاستخراجها، وهنا أدرك أن مسز «جونز» تجثم فوقه، وأنها قوية جدًا، وأن أنفاسها كريهة الرائحة، وأن شكلها لا يريح بتاتًا...

لقد هاجمته من الخلف، وكانت خفيفة الحركة كقِطٍّ، لكن وزنها لم يكن وزن قِطٍّ.

فيما بعد، عرف رجال الشرطة أن المحقن كان يحوي منومًا قويًّا هو «الباربيتيورات» قصيرة المفعول، لكن ما لم تعرفه مسز «جونز» هو أن «جيريمي» مدمن مخدرات.. كل شاب غربي تقريبًا كان مدمن مخدرات في ذلك الوقت، وكانت لهذا الوضع المؤسي مزية واحدة هي أن المخدر في المحقن لم يؤثر فيه تقريبًا.

عندما جثمت فوق صدره كانت تضحك في جنون، وكانت تمسك بموسى كموسى الحلاقة وتبحث عن وريد رقبته.. هنا استطاع أن ينزع الموسى منها ويُلقي بها أرضًا.. لا يعرف ما حدث لها بعد ذلك.

لا بد أنه استغرق شهرًا حتى بلغ الباب وهو يصرخ.. ولما استطاع ركوب دراجته راح يصرخ باحثًا عن أي رجل شرطة.

* * *



«جيريمي» لم يكن يعتقد بوجود مصاصي الدماء.

في المستشفى فحصوه، ووجدوا أن جروحه سطحية، ووجه له رجال الشرطة أسئلة، وجعلوه يحكي قصته ثلاث مرَّات. كل شيء في الموقع كان يؤكد صدق قصته.. الجديد هنا هو أن العجوز ماتت.. لا يذكر أنه قتلها، لكن من الجلي أنه فعل.

«جيريمي» لم يكن يعتقد بوجود مصاصي الدماء.

لكن ذلك الرجل الغريب الذي جاءه في المستشفى غيَّر الكثير من المفاهيم، وبالتأكيد لم يعد واقفًا على ذات الأرض السابقة.

كان الرجل يضع شاربًا كثًّا عجيبًا، ويلبس نظارة سوداء، وفيما بعد عرف «جيريمي» أن هذا المظهر الغريب سببه ببساطة أن كل هذا تنكر. لا توجد شوارب مستعارة متقنة أبدًا لو أردت رأيي.

كان هذا هو «ك» كما رآه أول مرَّة.. وسوف يعرف فيما بعد أنه يتخذ أسماء كثيرة، لكن في كل مرَّة يبدأ الاسم بحرف «ك».

في استقبال المستشفى كانوا يفحصون «جيريمي»، عندما دنا ذلك الرجل منه وحيَّاه بسماجة، وقال بصوت خفيض، وهو يجلس جواره على طرف المحفة:

ـ اسمي «كيث».. عرفت من الشرطة قصتك.. أنت تعرف كما أعرف أن من هاجمتك مصاصة دماء.. مندهش؟ هذا من حقك.. لكن دعني أؤكد لك أن مصاصي الدماء لا يدخلون من النوافذ على شكل وطاويط، ولا يغرسون أنيابهم في عنقك.. إنهم يحقنونك بمنوم ثم يحدثون جرحًا في عنقك بالموسى ويشربون دمك كله.. لا تُصدق؟ لكن...



ثم أخرج بطاقة عليها رقما هاتف، وقال:

ـ إذا رغبت في مساعدتي على إبادة هؤلاء القوم فلتتصل بي.

* * *

عندما اتصل «جيريمي» بعد أيام بـ«كيث» وتم اللقاء، عرف أشياء كثيرة.

إن هؤلاء القوم ينتشرون يومًا بعد يوم.. صارت لهم أحياؤهم وحاناتهم وشعائرهم شبه الدينية.. المشكلة أنك لا تعرفهم أبدًا إلا عندما يموت واحد منهم برصاصة فضية فيخرج دخان كثيف من جسده.. هذه ظاهرة لم نعرف تفسيرها العلمي بعد.. ثمة امتزاج عجيب بين العلمي والميتافيزيقي هنا.

قال «جيريمي» في حيرة، وهو مستعد لأن يفر لو شك في أن الرجل يكذب:

ـ ولماذا أنا بالذات؟

قال «ك» وهو يشعل لفافة تبغ:

ـ نحن مجموعة من الرجال ننفذ القانون بأيدينا.. «vigilante».. نحن نقتل مصاصي الدماء.

ـ كم عددكم؟

ـ لا تعليق.

ـ ومن يمولكم؟

ـ لدينا من يدركون خطر المشكلة ويتبرعون.

ـ وكيف تختارون الأعضاء؟

ـ طريقة اختيارنا للعضو الجديد هي أن يكون قد التحم مع مصاص



دماء وظل حيًا.. هكذا نعرف أنه قوي شديد المراس، وأنه جرَّب مشاعر الخوف، وأنه يحمل رغبة في الانتقام.. لهذا لدينا شبكة ممتازة في الإسعاف والشرطة.. نعرف بالضبط أين وجد مصاص دماء وماذا فعل.. وبالتالي نقصد الناجي ونعرض عليه أن يكون بيننا.. أنت نموذج ممتاز لهذا.

تساءل «جيريمي»:

ـ وماذا يرغمني على ذلك؟

ـ لا أحد يرغمك.. لا شيء.. فقط نحن نعتقد أن من يمر بتجربة مواجهة مصاص دماء لا يرغب في أن يمر بها شخص آخر.. رهاني هو أنك ستقبل في النهاية.

ـ وإن لم أفعل؟

ـ يجب أن تلاحظ أن هذا ليس اسمي ولا شكلي ولا مكاني ولا أرقام هاتفي.. في اللحظة التي ترفض فيها سأذوب تمامًا.. لن أوجد.

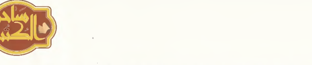
ـ افترض أنني حاولت أن أجدكم؟

قال «ك» باسمًا، وابتسامته ليست حدثًا هينًا:

ـ في هذه اللحظة تكون قد أعلنت عداوتك لنا، وسوف نعاملك كما نعامل مصاصي الدماء!

وبعد تردد لم يطل وجد «جيريمي» نفسه ينضم للجماعة التي تُطلق على نفسها «VLC» (Vampire Loathers' Club) أو «نادي أعداء مصاصي الدماء».

كانت هناك إجراءات انضمام، لكنها رسمية جدًا ومتحضرة جدًا،



لم ترضِ خياله، ولم تشبه الطقوس الماسونية في شيء.. ثم التدريبات البدنية الصارمة التي تتم في بيت في الضواحي، ودروس الرماية...

عرف بعض الرجال وليس جميعهم طبعًا، وعرف أن فرصة الحديث الطويل الحميم مع «ك» لن تتكرر ثانية؛ لأن «ك» أكثر غموضًا وخطرًا مما خيل له.. «ك» يظهر من حيث لا تدري، ويختفي حيث لا تدري.. «ك» يبدو أنه يسمع خواطرك.. «ك» يبدو كأنه محصن ولا يموت.

وكان «ك» يعرف دائمًا أين يكون مصاصو الدماء، وماذا يعملون.

وكان يقول للرجال:

ـ أي معلومات تتسرَّب عنكم خطر عليكم وعلى أُسركم.. سوف يحاول هؤلاء الانتقام أو الضغط عليكم.. إن السرية هي الضمان الوحيد للأمان.

هكذا جرت الأمور، وكانت هناك عدة مواقع كالتي حكينا عنها.. لم تكن نزهة بالتأكيد، وكان هناك قتلى بين صفوف الأخيار كأي حرب.

* * *

لم يكن أحد من الرجال يفكر في القتلى عندما مضوا في شوارع القرية الخالية.

كانت القرية مهجورة منذ عقود، فلا تدخلها سوى العواصف الرملية، وكانت العقارب تمرح بحرية تامة، كما أن هناك الكثير من الأعشاب الصحراوية الجافة التي تذروها الريح والصبار.

لكن الجميع كانوا يعرفون أن مصاصي الدماء اختاروا هذه القرية



للعودة بفرائسهم أو التخطيط لعملياتهم. فقط لا يوجد أحد منهم الآن.. هذا مؤكد.

«ك» كذلك كان يحب أن يلتقي برجاله في ذات القرية.. إنها خارج القانون وخارج التاريخ.

يمكنك أن ترى هنا أو هناك جثة مُعلَّقة جففتها الشمس وتسلت عليها العقبان، فلا تعرف أبدًا إن كانت جثة مصاص دماء أو جثة واحد من أعداء مصاصي الدماء.

الحانة...

ركل أحد الرجال الباب العتيق الذي ينفتح وينغلق على طريقة «جناح الخفاش»، فتطاير الغبار.. ثم سلط الرجال كشافاتهم على جوانب المكان وعلى السقف.. تعلّم أن تنظر إلى السقف دائمًا كلما دخلت مكانًا جديدًا.. من نسوا هذه القاعدة لم يظلوا أحياء طويلًا.

هناك كان «ك» يقف خلف البار في مكان الساقي، وكان يضع مصباحًا صغيرًا أمامه.. هذه المرّة كان يلف رأسه بالأربطة كالمومياء.. وكان اسمه «كالفين» اليوم.

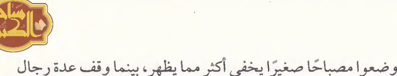
ـ هل جاء الجميع؟

ـ لا. هناك سيارة لم تصل بعد.

نظر إلى ساعته وأطلق سبة، ثم قال:

ـ لن نستطيع البقاء هنا للأبد.. سوف نبدأ الاجتماع.

كان المشهد مهيبًا رهيبًا إذ تناثر الرجال على المناضد المتهالكة المغبرة التي مرت عليها عدة عقود بلا استعمال، وفوق كل منضدة



وضعوا مصباحًا صغيرًا يخفي أكثر مما يظهر، بينما وقف عدة رجال حول كل مداخل المكان وهم يحملون أسلحتهم في أوضاع احترافية لا تأتي من هواة أبدًا.

قال «ك» وهو ينظر إلى رجاله في الظلال:

ـ كما قلت لكم، فقد أطلق مصاصو الدماء على أنفسهم اسم «جماعة الثعبانين المتصارعين».. وصار لهم وشم مميز على المعصم.. هذا يجعل البحث عنهم أسهل حتى لو لم تروا الوشم، فلماذا يحرص رجل على أن يلبس كمين طويلين في الصيف والحر؟ هذا يضيق الدائرة.

ثم أضاف وهو ينظر إلى أوراقه:

ـ هناك نوع من السفر المنتظم إلى أحد بلدان الشرق الأوسط، وهو مصر على الأرجح.. إن هؤلاء القوم ذاهبون إلى مناسبة ما، وعلينا أن نعرف هذه المناسبة.. تخميني الخاص هو أن الأمر يتعلق بالربة «سخمت». هناك لون من الطقوس لا شك فيه.

ثم نظر في الظلام من حوله وتساءل:

ـ نحن لا نعمل حسب قواعد ديمقراطية، بل نحن أقرب إلى وحدة عسكرية تنفذ ما يُطلب منها، لكن القرار في هذه المرَّة سيكون صعبًا ويحتاج إلى عدة رؤوس.. هل نرسل مجموعة منا إلى مصر؟

كانت نتيجة التصويت قاطعة.

لا شأن لنا بهؤلاء الذين ذهبوا إلى مصر.. لا نملك الموارد للسفر، ولو سافرنا فلن نجدهم.. إن مجال عملنا في الولايات وسيظل كذلك.

قال «ك» وهو يجمع أوراق التصويت التي اتخذت شكل كومة قصاصات على المنضدة:

ـ إذن سوف نفترق.. ونلتزم بنفس أسلوب العمل القديم.

هنا سمع الجميع صوت زجاج يتهشم، فلم يصدق أحد أنه ما زال هناك زجاج في هذا المكان.

يبدو أن هناك نافذة، وأن هناك من اقتحمها.

* * *

يرى كثير من المهتمين بتاريخ مصاصي الدماء أن الأسطورة ولدت في مصر بالذات.. لا أعرف صحة هذا، لكنهم يؤمنون بأنه صحيح ودقيق تمامًا. هذه أشياء لا يحكونها في كتب التاريخ التي تجدها في المدارس ودور العلم، لكنك بالتأكيد تجدها في كتب العصور الوسطى ذات الحروف القوطية والصفحات الصفر والأطراف البالية.

كان المصريون يعبدون معبودة شنيعة اسمها «سخمت».. لا شك في أنك تعرفها.. المرأة ذات رأس الأسد والمزاج المتقلب.. وكانت المهمة الرئيسية لـ«سخمت» هي الحرب.. إنها «مارس» إله الحرب الفرعوني، لكن كانت لـ«سخمت» مهمة أخرى شديدة التعقيد، هي أنها المسؤولة عن توزيع الصحاري في مصر بأنفاسها.. ظريف جدًّا أن تتنفس فتولد الصحراء.. كما أنها كانت مسؤولة عن طمث النساء.

في الوقت ذاته كانت «سخمت» مولعة بشرب الدماء.. الدماء البشرية طبعًا.

تحكي إحدى الأساطير عن قيام الناس بتوزيع آلاف الأوعية التي



تحوي مزيجًا من المخدرات والبيرة والدم في طريقها.. وقد قامت بشرب كل هذه الكميات فبدأت تهدأ قليلًا، ورقصت وانتشت.

الخلاصة على ما يبدو هي أن أول مصاص دماء يُوصف بدقة في التاريخ البشري هو «سخمت»، وهناك من يقول إن من جعلها كذلك هي «ليليث».. «ليليث» مصاصة الدماء العبرية الشهيرة، لكن المرء يميل بشدة إلى أن هذا نوع من التلفيق اليهودي المعتاد، حيث يحشر اليهود تاريخهم في كل شيء!!

هناك دائمًا مصاص دماء في ضمير الشعوب.. من الوحوش حمر العيون خضر الشعور في الصين.. إلى «لاميا» اليونانية التي هي امرأة وأفعى معًا.. إلى الثعالب مصاصة الدم في اليابان.. والرأس الزاحف «بينانجالانج» في ماليزيا.. في رومانيا هم «ستريجوي» من لفظة «ستريكس» التي تعني البومة، هناك «ستريجوي في» أي الساحرات الحيات اللاتي سيصرن مصاصات دماء، «ستريجوي مورت» هم موتى يعودون إلى الحياة لامتصاص دماء البشر.. الهند عامرة بأساطير مصاصي الدماء، هناك الـ«بوتا» الذي يجوب الليل ويهاجم الأحياء كالغول، بعض تلك المخلوقات لها جمجمة قابلة للنزع لشرب الدم منها.. إلا أن أشهر مصاصة دماء هي «كالي» ذات الأربع أذرع، والتي تلبس حول عنقها جماجم الموتى، ولها أنياب حادة، يُقال إنها بهذا تهزم الإله «راكتابيجا» الذي كان يعيد التجسد من قطرة دم واحدة، لهذا تحرص على ألَّا تترك أي قطرة دم.. البطيخ الذي يُترك في البيت حتى يفسد يبدأ في الحركة ويتحول إلى كائن يمتص الدم.

وماذا عن «الأساسابونسام» في غانا وساحل العاج؟ مصاص دماء يتوارى بين الأشجار، ويهاجم العابرين.. «الداشنافار» في أرمينيا، يمتص الدماء من أقدام المسافرين ليلًا.. في ألبانيا «اللوجات».. في أستراليا «يارا ما يها هو».. في بلغاريا «أوبور»، هنا نجد أنه بعد الميتات العنيفة لا تفارق الروح الجسد، إنما تجعله يغادر التربة، وهو ـ «الأوبور» ـ يهاجم أثداء النساء الماشيات في الغابة ليمتص الدم منها.. في الصين «شيانج شيه»، يخرج من جثة متنحر ويبدو بشريًّا، لكنك تعرفه عندما لا يتمكن من عبور الماء.. «الفرايكولاكاس» في اليونان، الذي يأتي لدارك ويناديك بالاسم طالبًا الدخول.

هناك دائمًا مصاص دماء في ضمير الشعوب.. وهناك دائمًا من يحاول تخليص العالم منه.. هي دورة أبدية...

(٢)

عندما نهض ذلك الشيء أدركوا أنه يبدو بشريًّا.

فقط كان أضخم من اللازم، وفي عينيه نظرة نارية مخيفة، وعندما نهض وسط الزجاج المهشم أدرك الرجال أنه ليس طبيعيًّا، وأن فرصتهم في القضاء عليه واهية.

ـ الرصاص! الطلقات الفضية! لا تدخروا!

كذا صاح «ك»، ولم يكن الرجال ينتظرون أوامره على كل حال. انهمرت الطلقات على هذا المسخ، لكنه كان يتلوى وينهض



ويتحرك بين الرجال بحرية تامة.. ثم إنه وثب على حلق أحدهم فمزقه، ووثب على ظهر آخر فتعلق به، وأنشب أنيابه في قفاه... بالطبع مزقت الطلقات هذا الحمال البائس.

«ك» ـ الذي اسمه «كالفين» اليوم ـ كان يراقب الموقف في توتر، حيث وقف في وضع متحفز خلف البار.. في كل لحظة كان يدرك أن هناك تطورًا غير مسبوق، لكنه على الأقل كان يختلف عن الرجال في أنه يعرف ما يدور حقًّا ويعرف ما هذا.

«جانجريل».. لقد صار مصاصو الدماء يضمون بين ظهرانيهم «جانجريل»!

* * *

قال «ك» لرجاله بعدما هربوا:

ـ لن نقدر على تجاهل الحقائق للأبد.. ما رأيناه في هذه القاعة وما قتلناه ومزق بعضنا كان «جانجريل».. إن هؤلاء القوم يتبدلون بسرعة.

«جيريمي» كان أول من حطم نطاق الصمت، فسأل:

ـ ما هو «الجانجريل»؟

لم يكن «جيريمي» يخشى أن يبدو غبيًّا، لذا كان يظفر بالإجابات كلها.

قال «ك»:

ـ «الجانجريل» (Gangrel) نوع من مصاصي الدماء يفضل الأماكن المقفرة، ولهم قدرة فائقة على تغيير الشكل إلى ذئب أو وطواط.. إنهم يحبون معاشرة الحيوانات الضارية لأن هذا يناسب طبيعتهم

أكثر.. مع الوقت ينمو لهم شيء حيواني مثل عين القط أو الفراء أو أذن الوطواط.. معنى أن هناك واحدًا منهم ضمن «جماعة الثعبانين المتصارعين» فهناك تطور لا شك فيه.. إن «الجانجريل» أقوى كما لاحظتم، بل هو أقوى من الطلقات ذاتها!

ـ وماذا نفعل؟

فكر «ك» للحظات وهو يعيد ربط لفافات المومياء حول عنقه، وقال:

ـ سوف نقبع هنا وننتظر.

ـ من أين جاء هؤلاء الجُدد؟

قال «ك» وهو يشعل لفافة تبغ بدا مظهرها غريبًا وهي تبرز وحدها من بين الأربطة:

ـ بدأ كل شيء مع تلك الهجرة إلى مصر.. نحن لا نعرف على وجه التحقيق ما يدور هناك، لكن الدلائل تخبرني بأنهم يجمعون آثار «سخمت».. تقول القصة إن الفراعنة حاولوا الثورة ضد «رع» مما دفعه للانتقام.. هكذا أرسل لهم «سخمت» المخيفة التي لها رأس لبؤة، والتي راحت تبحث عن كل من يحمل في قلبه حلمًا شريرًا أو يفكر في أشياء تغضب «رع».. كانت طريقتها للعقاب هي شرب الدم.. عندما قررت الآلهة أن العقاب كافٍ كان من المستحيل أن توقف «سخمت» عند حد.. لقد أدمنت دم البشر.. قرر «رع» أن يتصرف، فأعد لها مشروبًا مسكرًا قويًّا مزج بالدم، وأمر بأن يسكبوه في طريقها بينما هي عائدة.. رأت ما حسبته دمًا فشربته في نهم فسكرت ولم تعد تفكر في مص

دماء البشر. البعض يعتبر هذه القصة أكذوبة.. بمعنى أن الفراعنة لم يحكوا عن شيء كهذا.. بعبارة أدق: هي أسطورة أن هناك أسطورة بهذا الشكل.

ـ عامة لا بد لكل من يهتم بتاريخ مصاصي الدماء أن يبدأ بمصر.. واعتقادي الخاص أن هؤلاء القوم وجدوا شيئًا له تأثير سحري.. والنتيجة هي هذا التطور.. يزدادون قوة.. يتحورون.. إن «VLC» تواجه تحديًا حقيقيًّا.

تبادل الرجال النظرات في رعب.. تُرى ماذا يدور في مصر بالضبط؟

* * *

كان عفيفي، المرشد الشاب، لا يشعر براحة لدى تعامله مع هؤلاء القوم.

كان قد تعامل مع أمريكيين كثيرين، ويعرف جيدًا أنهم قوم ظرفاء أقرب للبشاشة، لكنه لم يحب هذه المجموعة من الأمريكيين الخمسة الذين جاءوا للسياحة.. والذين يقيمون في فندق «نفرتيتي» بالأقصر. إنهم يخفون عيونهم دومًا وراء نظارات سوداء، ووجوههم متصلبة مليئة بالتجاعيد، وشعرهم منتصب يذكرك بأشواك القنفذ.. كذلك هم لا يفهمون الدعابة أبدًا.

لكن العمل هو العمل، ولا مجال للمزاح في أمور كهذه.

لاحظ شيئًا غريبًا آخر، هو أنهم جميعًا تقريبًا يحملون نفس الوشم على المعصم.. لم يُتح له أن يدرسه بدقة لكنه يُذكرك بالثعابين.

فقط في السهرات كان هناك جو من المرح، وقد أعطاه أحدهم



بعض أقراص «الفاليوم»، ولم يكن عفيفي من الذين يرفضون المخدرات لذا ابتلع بعضها.. تغلب على نفوره الطبيعي منهم وجرب القرص.

بعد يومين أعطوه قرصًا آخر غريبًا، وخطر له أن يجرب أحدث ابتكارات الكيمياء القادمة من بلاد الفرنجة.

كانت النتيجة تفوق الخيال فعلًا.

قال له واحد من هؤلاء القوم:

ـ لو وجدت زبائن لهذا الصنف فلسوف نكافئك بسخاء.

سأله عفيفي عن اسم هذا العقار الفريد، فقال:

ـ هذه أشياء لا تُقال.

لكن عفيفي على كل حال تفحص القرص جيدًا، ثم استخدم عدسة ليقرأ الحروف المنقوشة عليه، فقرأ لفظة «نرفونورم».. «نرفونورم»؟ لم يسمع قَطُّ عن مخدر بهذا الاسم، لكن عنوانه يوحي بأنه يعيد اتزان الجهاز العصبي.. ليكن.

أولى العلامات المقلقة كانت عندما دخل السينما مع خطيبته.. وقد ظلت خطيبته منى جالسة تقزقز اللب لمدة نصف ساعة، ثم اضطرت للذهاب إلى الحمَّام.. هكذا نهضت.. ولم يكن أخوها معهما في تلك الليلة لأن الأهل بدأوا يعاملونهما كمتزوجين فعلًا.. تركت عفيفي في مقعده كما هو، ومضت تشق طريقها في الظلام.

عندما عادت ضلت طريقها بين المقاعد لأن أحداث الفيلم كانت في الليل فقط.. كاتب السيناريو الأحمق صمم أن يجعل اللقطة «ليل ـ خارجي» وهي في الحمَّام! مضت تشق طريقها وهي تحاول ألَّا تكسر



ساقها.. دور السينما من هذا الطراز ليست بها أضواء أرضية.. هكذا راحت تتحسس طريقها وهي تسب وتلعن.

فجأة رأت الجمرتين.

كانتا جمرتين ملتهبتين فعلًا، لكنهما على ارتفاع متر عن الأرض.. خيل لها للحظة أنهما عقبا سيجارتين، لكن من الغريب أن يشعل اثنان سيجارتين متقاربتين لهذه الدرجة.. ثم إنها لا ترى أي دخان!

أخيرًا أشرق النهار في الفيلم، وغمر الضوء الصالة.

عندها انطفأت الجمرتان، وأدركت منى أنها في مكان متقدم عن مكان عفيفي، وأنها كانت تنظر إلى الخلف بحثًا عنه.. لقد انطفأت الجمرتان.. وعندها فهمت أنهما عينا خطيبها!

قالت منى لأختها فيما بعد:

ـ لم يكن هناك أي انعكاس من الشاشة عندما حدث هذا.. من أين جاء ذلك الوهج في عينيه؟! أكاد أقسم أنهما كانتا تشعان النور ولا تعكسانه!

قالت أختها في ضيق:

ـ لو كان هذا ما تقصدين بغرابة الأطوار، فأنت تضيعين وقتك ووقتي.

ضمت أصابعها في شكل قمع بمعنى «اصبري»، وأردفت:

ـ انتظري قليلًا.. الأمور ليست بهذه البساطة.

* * *

ازدادت الأمور غرابة في ذلك اليوم الذي خرجت فيه معه يشتريان بعض لوازم البيت.. هناك أشياء عجيبة تثب إلى ذهنك فجأة.. سلة



المهملات.. أهم جزء في البيت لا تتذكره إلا بعد فوات الأوان.. ماذا عن الملّاحات؟

كانا يمشيان في وسط المدينة وسط الزحام، ويبدو أنه كان منهمكًا في الكلام حتى لم يرَ تلك الدراجة البخارية التي تندفع نحوه.. في اللحظة التالية تلقى ضربة قوية على مؤخرة ظهره.. ربما أسفل عنقه كذلك.

صرخت منى، ونظرت نحو راكب الدراجة.. كان ينطلق الآن بأقصى سرعة مبتعدًا نحو نهاية الشارع ليغيب وسط الزحام.

فيما بعد، قال الشهود إن لوحة أرقام الدراجة البخارية كانت ممسوحة، ومن المستحيل قراءة ما عليها.

لم تستغرق منى وقتًا مع هذه التفاصيل لأنها ركعت جوار خطيبها صارخة.. تجمَّع الناس حولهما.. الفتى يئن ألمًا وقد سقط على الأرض.. لقد انفتح زر قميصه وهذا شيء نادر.. يمكنها أن ترى بطنه.

للحظة خيل لها أنها ترى فراء.. ليس شعرًا كثيفًا، بل فراء.

هي ليست طفلًا.. عرفت طفلًا يصر على أن ما يغطي القط هو ريش، لكنها لن ترتكب هذا الخطأ.. ما رأته هو بقعة صغيرة بحجم الكف ينمو فيها فراء بني اللون كثيف.

في الثانية التالية امتدت يده لتغلق الزر وعاد يئن.. الغريب أنه كان سليمًا.. منهكًا لكنه سليم.. نهض يتحسس عنقه وأطلق بعض عبارات السباب على هذا المجنون.

ـ الشوارع لم تعد آمنة.. أولاد الحرام في كل مكان.

قالها أحد الواقفين متصعبًا.



سألته وهي تساعده على النهوض:
ـ هل أنت بخير؟
قال الرجل المتحمس:
ـ مستحيل! لقد سمعت صوت الضربة.. لا بد أن شيئًا تهشم.
لكن عفيفي قال في حزم:
ـ أنا بخير.. لا تقلقوا.. لم تحقق الضربة هدفها.
ثم نهض وقد بدا مذهولًا من كل هذا الزحام، وقال لها آمرًا:
ـ فلنذهب.
وسرعان ما ابتعدا وسط ذهول الناس.. فقط سمعت الرجل إياه يكرر:
ـ سبحان الله! سمعت الضربة فحسبت أن عنقه طارت عن كتفيه، وها هو ذا يمشي على قدميه!
ـ الأعمار بيد الله.
كانا قد ابتعدا بما يكفي، فسألته في قلق:
ـ متأكد من أنك لا تحتاج للذهاب إلى المستشفى؟ يقولون إن إصابات الرأس هذه قد ينهض منها المصاب شاعرًا بأنه بخير، ثم يكون الارتجاج الذي يظهر بعد ساعات.
قال في ضيق:
ـ أنتِ لست طبيبة وأنا كذلك.. دعينا نتصرف على أساس ما نراه.. أنا بخير.
عادت تسأله في إلحاح وهي ترتجف:
ـ لماذا ضربك؟

ـ لا أعرف.

ـ لقد كانت ضربة محكمة خُطط لها من قبل.. لا تقل لي إن هذه مصادفة.

قال بضيق يتزايد:

ـ ابن حرام كما قال ذلك الرجل.

ـ أولاد الحرام لا يجوبون الشوارع بدراجات بخارية يضربون الأبرياء على رؤوسهم.. هذا الرجل يعرفك وأراد إيذاءك.

ـ وأنا بلا أعداء.. ليست لديَّ أدنى فكرة عن شخصه ولا غرضه.

* * *

كان الأمريكيون قد جاءوا إلى القاهرة اليوم بعد أن أنهوا مهمتهم في الأقصر.. عفيفي قدَّم لهم خدمات عظيمة ومهمة جدًّا، لكنه لا يذكر حرفًا مما قام به!

في المرَّة الأخيرة قابل المستر «صمويل» في تلك الكافتيريا وسط البلد.. كان «صمويل» يلبس نظارة سوداء سميكة تحجب عينيه، وكان يلبس كمين طويلين كالعادة مؤخرًا. أعطاه المزيد من هذا العقار الثمين، وطلب منه أن يستعد لزيارة معبد مهم في الفيوم.

قال عفيفي إنه ممتن للرجل، لكنه بالفعل لا يريد الاستمرار في خدمتهم.. هو غير مستريح، ولا يحب ما يقومون به.

هنا خطرت له للمرَّة الأولى فكرة الاستعانة بالشرطة.

الفكرة تألقت في ذهنه.. ولسبب ما يبدو أنها وصلت إلى المستر «صمويل». كيف عرف المستر «صمويل»؟ لا نعرف. كيف عرف عفيفي؟ لا نعرف أيضًا.

فقط تعبير قاسٍ بدا على وجه الأمريكي.

وعندما تلقى عفيفي تلك الضربة من راكب دراجة بخارية، فإن بوسعه أن يخمن تقريبًا من فعل هذا ومن أرسله.. هناك من يحاول منعه من الاتصال برجال الشرطة.. تعرف مَن طبعًا.

هؤلاء الرجال يقومون بعمل ضد القانون.

المشكلة أنه لا يستطيع الفكاك، ولا يستطيع إلا أن يضم لهم آخرين.. فيما بعد سوف تنضم منى إلى هؤلاء القوم لأنه سيغريها بابتلاع العقار الغريب، لكن لا داعي لهذا الاستطراد الآن.

(٣)

خذوا الحذر.. أغلقوا الأبواب جيدًا.. ليعد أولادكم مبكرًا.. لا تتأخروا خارج الديار.. لا تجتازوا أزقة مظلمة...

جرائم غامضة لا يعرفها المجتمع المصري، ولم يعرفها من قبل. هذا ما تتكلم عنه الصحف.

القتل الطقسي وجثث خالية من الدماء.. العدد يتزايد.. لا شك في هذا.

نصيحتي للفتيات هنا هي: عندما تكتشفين رقعة من الفراء في جلد خطيبك القادم فلا تترددي في فسخ الخطبة.. لا مجال للمجاملات هنا.

وكما نعرف، تتأخر الأخبار كثيرًا حتى تصل إلى الولايات المتحدة..

إنها تتحرك باتجاه واحد من عندهم نحونا، لكنها تتأخر جدًّا عندما تتحرك من عندنا نحوهم.

استغرق الأمر نصف شهر حتى قرأ «ك» الصحف، وعرف أن هناك شيئًا ما يحدث في مصر.

وكان أقدر من غيره على التفسير طبعًا.

* * *

كان هناك طفلان في البناية.

طفلان مقيدان مذعوران ينتظران مصيرًا قاسيًا بلا شك.

كان الرجال الأشداء يرقدون على الأرض في الخارج، يراقبون البناية ذات الطابق الواحد التي تشع بضوء غامض هي نفسها.. ويحاولون أن يتخيلوا ما يدور بالداخل.

أشعل «ماكيلان» لفافة تبغ، لكن «ك» انتزعها من فمه في غلٍّ وألقاها أرضًا.. هؤلاء القوم يشمون التبغ بسهولة تامة، ويسمعون بحدة كذلك.. لا تنسَ أن فيهم شيئًا من القطط وشيئًا من الوطاويط.

كانت الخطة قد رُسمت مسبقًا.. سوف يتسللون من نافذة صغيرة في البدروم، ومن هناك يبحثون عن مكان الطفلين.. بعد المواجهة وإنقاذ الرهينتين يفرون من الباب الخلفي ويحرقون المكان كالعادة.

وكأنهم رجال كوماندوز راح الرجال يزحفون على بطونهم نحو النافذة.. في كل لحظة يثب جسد عملاق إلى النافذة ويحشر نفسه داخلها بمعجزة ما.

«ك» يُدعى اليوم «كارلوس»، وهو يحمل «قرابينه» محشوة بطلقات



الفضة.. يلبس على وجهه قناعًا من أقنعة لعب البيسبول. لا بد أن خزانة ثياب هذا الرجل جديرة بالمشاهدة.

وبدأ التسلل...

هناك شيء ينساه من يكتبون قصص المغامرات أو أفلام الأكشن، وهذا الشيء هو أن هؤلاء بشر ومثاناتهم تمتلئ بالبول.

شعر «جيريمي» بأن مثانته توشك على الانفجار، لذا لم يستطع أن يعبر النافذة مع من عبروا.

زحف وسط الأعشاب.. زحف حتى بلغ شجرة قريبة ووقف تحتها.. اضطر لنزع القفاز وراح يهز ساقه في عصبية محاولًا أن يرغم مثانته على أن تفرغ بسرعة أكبر.

شششششش!

الماء يتدفق...

في الداخل كان الرجال يزحفون بين الممرات وهم يفتشون.. بالطبع كان أول شيء ينظرون إليه هو السقف.. إن مشهد مصاص دماء يتعلق بالسقف في وضع «X» هو مشهد لا يمكن نسيانه، ولا تتكلم عن الرعب أبدًا إن لم تره.. فجأة يهوي فوقك كما يحدث مع برص وهنت ممصاته.. وعندها...

هل لا يوجد أحد هنا؟

كانت البناية ناديًا ليليًّا حقيرًا منذ أعوام، ثم صارت مهجورة.. لهذا كان معظم الرجال يحملون المشاعل لأنه لا كهرباء هنا، وكانوا يكممون أنوفهم إتقاء للعدوى الفطرية التي تسببها فضلات الوطاويط.. مَن يعرفون الوطاويط يعرفون داء «الهستوبلازما» الذي يدمر الرئتين تدميرًا.



ششششش!

ما زالت مثانة «جيريمي» مليئة.

وعندما بدأت القطرات الأخيرة تتساقط منه رفع رأسه نحو البناية.

هنا رأى شيئًا غريبًا...

كان مصاصو الدماء يركضون بسرعة، وبكفاءة لا توصف، يغلقون كل ثغرات البناية.

الباب قاموا بتثبيته بوتد غليظ، ثم أغلقوا النوافذ عن طريق مسامير يثبتونها على حواف النافذة ثم يربطون الجنازير بينها.

ولم يفهم «جيريمي» معنى هذا، سوى أنه أدرك أن زملاءه حُبسوا بالداخل وهو صار وحيدًا بالخارج.. أين «ك»؟

في الداخل استغرق الرجال وقتًا طويلًا حتى يفهموا عندما صرخ أحدهم:

ـ رائحة غاز «البيوتان»!

وصرخ آخر:

ـ ألقوا بالمشاعل!

ـ بل أطفئوها يا أحمق!

وعلى الفور دوَّت الانفجارات من عدة أماكن.. ثم اشتعلت البناية كلها كأنها جريدة تحترق.

وسمع «جيريمي» الصرخات، وسمع صوت الدقات الصارمة على الباب.. كانوا يحترقون.. مثل الكابوريا. كانت أمه تطهو بعض الكابوريا الحية في طفولته، وسمع صوت دقات الكائنات التعسة على الإناء طالبة الخروج.. هذا هو.. يتكرر.



يتكرر للأبد...

صرخ «جيريمي»، ثم سقط على العشب ودفن وجهه في الوحل الرطب.

كان هذا كمينًا محكمًا.. كمينًا موفقًا.. انتظروا حتى دخل الرجال كلهم البناية ثم أغلقوها بإحكام، وبالطبع كانت هناك أكثر من أسطوانة غاز «بيوتان» مفتوحة، مع العلم أن المشاعل ستكون طريقتهم.. نادي أعداء مصاصي الدماء يستعمل المشاعل دومًا.. وبالطبع كانت أنوفهم مكممة لذا لم يشموا رائحة الغاز إلا في وقت متأخر.

الرجال يحترقون.. يحترقون...

ولكن أين «ك»؟ هل مات؟

* * *

قال لهم «جيريمي» وهو يفتح الكيس:

ـ معذرة! لكن على كل منكم أن يمد يده في الكيس ويُخرج شيئًا.

في حيرة نظروا إليه.. كان عددهم عشرة رجال، وكانوا أشداء ذوي ملامح صلبة.. لكن الشك والضوء المتراقص من اللهب جعلهم أقرب إلى الأشباح.

مد أولهم يده في الكيس وأخرج شيئًا.. رأس ثوم كبيرة بيضاء ذات «خرفشة» قوية.

ـ ما معنى هذا؟

قال «جيريمي» وهو يصوب المسدس نحوهم ويده ترتجف قليلًا:

ـ هذا هو الاختبار الذي تعلمته من «ك» لمعرفة هل من مصاص دماء بيننا.



قال أحد الرجال في سخرية:

ـ كُف عن هذا السخف يا فتى.. هذا كلام فارغ تحبه السينما!

قال «جيريمي» وهو لا يبعد المسدس:

ـ الملاحظ أن مصاصي الدماء الذين جاءوا نتيجة الوباء لا يتحملون الثوم.. إن الوباء يقلد الأساطير بعناية.

دار الكيس، فالتقط ثاني الرجال رأس ثوم وشمها، بل إنه على سبيل الدعابة دسها بين أسنانه والتقط فصًا راح يلوكه في استمتاع.

الرجل الثالث التقط رأسًا.. فلما جاء دور الرابع، وكان مزارعًا قوي البنيان له عنق لوحته الشمس قال وهو يبعد الكيس:

ـ لا أريد.. هذا اختبار سخيف!

قال «جيريمي»:

ـ يجب.. إذا أردت أن تكون منا فعليك أن تنفذ.

لقد تغيرت شخصية «جيريمي» كثيرًا بعد الهول الذي رآه وبعد نجاته.. لقد فر بمعجزة، واتصل بمن يعرفهم من رجال «VLC».. للأسف هو لا يعرف الباقين.. القائمة الكاملة مع «ك»، ولكن أين «ك»؟ اتصل «جيريمي» بالرجال الذين يعرفهم، ودعاهم إلى اللقاء هنا.

قال لهم «جيريمي» وهو ينظر إليهم نظرة مخيفة ثابتة:

ـ هم لن يتركونا أحياء.. فهم يعرفون كل شيء عنا.. يعرفون مكاننا وبيوتنا.. نحن في خطر.. عائلاتنا في خطر.. زوجتك مهددة الآن لو فتحت الباب.. ابنتك لن تذهب إلى المدرسة وحدها.. أبوك المسن لا يستطيع أن يفتح النافذة ليلًا.. الجواب الوحيد هو أن علينا أن نعيد تشكيل نادي أعداء مصاصي الدماء.

بعد تردد قبل الرجال.. كانوا أشداء خبروا العالم وقتلوا وقاتلوا، وكان منهم أصحاب السنين، وخريجو السجون، لذا بدا لهم هذا الفتى هشًا جدًا حديث السن جدًا.. كان التردد قاتلًا.

ـ يجب أن تفعل.. يجب أن تمد يدك في الكيس.

هز الرجل رأسه في لامبالاة.

ألقى بالكيس أرضًا، واستدار برغم المسدس المصوب إلى ظهره، وفجأة رأوه يلتفت مسرعًا، ويفتح فاه عن آخره.. رباه!! إن ما يخرج من فمه ليس بلسان، بل هو أقرب إلى أفعوان ذي ممصات عديدة تخرج من رأسه، وكان وجهه قد تقلص تمامًا فصارت عيناه شقين أحمرين.

وثب في الهواء نحو «جيريمي»، لكن الطلقة أوقفته في منتصف المسافة.. الطلقة الفضية التي اخترقت جبينه.. وسقطت الجثة على الأرض تتشحط في الدم عند أقدام الرجال. نظر الرجال المذعورون إلى «جيريمي» فرأوا أنه أقرب للشيطان ذاته: حسم.. نار تتوهج في عينيه.. وقفة صخرية.. لقد انتهى عماده بالنار ليصير قاتل مصاصي دماء من الدرجة الأولى.

قال «جيريمي»:

ـ صبرًا.. لا يتحركن أحدكم.. رأيتم أنني محق، وأنني لا أمزح، وأن بيننا مصاصي دماء.. سوف نكمل الاختبار بالثوم حتى النهاية، وبعدها سوف نقطع الرؤوس ونحرق الجثث إن كانت هناك جثث أخرى!

* * *

التغير في شخصية «جيريمي» أثار دهشة من يعرفه.. هو نفسه لم يفهم قَطُّ كيف تحول من فتى مذعور خائف إلى شخصية قوية قادرة على قيادة عدة رجال أشداء، ثم أدرك أنها العناية الإلهية.. لا بد من شخص يقاوم هذا الوباء وقد اختاره الله لذلك.

لقد صار حازمًا قاسيًا.. وفي أحيان كثيرة كان أشد قسوة من أعدائه.. ففي تلك الليلة تمددت ثلاث جثث.. جثث اخترق الرصاص جباهها.. بناء على تعليمات صارمة جلس الرجال ليضعوا حزمًا من الثوم في فم كل جثة.. بدا المنظر غريبًا كأنها التفاحة التي يضعونها بين شدقي الخنزير في مآدبهم.. ثم بالمنشار ذي الصينية قطعوا الرؤوس.. وفي الخلاء سكبوا الكيروسين على الجثث وأشعلوا النار.. الدخان يتصاعد إلى عنان السماء.

لاحظ أحد الرجال أن أحشاء هؤلاء القوم تتحرك حركة ذاتية كأنها تحاول الفرار.. أطلق صرخة رعب وبدأ يرتجف، لكن «جيريمي» أوقفه في حزم، وقال وهو يستقل السيارة الأولى:

ـ سوف أرحل، لكن عليكم التأكد من دفن هذه الجثث.

ـ هل نضع قطعًا من العملات الفضية على العيون؟

ـ لا. هذه خرافات رومانية لا مجال لها هنا.

الحقيقة أنه كان مدينًا بشدة لـ«ك» برغم كل شيء.. كل نصائحه وتحذيراته لم ينسها، وكان ينفذها حرفيًا.. هذه نقطة قوته: إنه يعرف أسلوب «ك» وتكتيكاته.. عليك أن تغير كل شيء إذا أردت أن تظل حيًا.

* * *

عندما ثمل «جاكوب ماكيلان» وفقد التحكم في مشيته وفي كلماته، جاء رجلان من العاملين في الملهى الليلي.. زنجيان عملاقان لا يمكن التفاهم معهما، وألقيا به في الزقاق الخلفي.. حاول الاعتراض لكنه تلقى ركلة في وجهه.. سقط جوار علبة القمامة. قط فر هاربًا مذعورًا.

عندما استعاد «جاكوب» أنفاسه رأى هاتين القدمين تقفان فوقه.. رفع رأسه ببطء ليرى من هنالك.. في الزقاق المظلم استطاع أن يرى هذا الوجه ذا الشعر المنتفش واللحية المشعثة، وقبل أن يفهم ما يدور كان الرجل المسربل في الظلام قد جثم على صدره، وأدرك أنه يحمل محقنًا يريد أن يغرسه فيه.. لماذا؟ ليقطع وريد عنقك يا أحمق طبعًا.

نهض على ركبتيه محاولًا المقاومة، هنا سقطت علبة السجائر التي يضعها في جيبه.. السجائر انتثرت على أرض الزقاق.

هنا حدث شيء غريب لم يستطع فهمه في البداية.

لقد ترك المهاجم كل شيء كي يجمع السجائر المتناثرة.. غريب هذا! لقد رأى مدخنين مدمنين في حياته، لكنه لم يرَ قَطُّ هذا الحماس لجمع السجائر أثناء مشاجرة.. لا وقت للتفكير على كل حال.. مد يده لعلبة القمامة.. التقط الغطاء الثقيل.. هوى على رأس المهاجم.. مرَّة.. مرَّتين.. سقط هذا متخاذلًا.

ثم إن «جاكوب» نهض وراح يركض فارًّا من المكان.. يركض وهو يترنح فليس السُّكْر أفضل وضع تواجه به مصاص دماء في زقاق. لكنه لم يفهم ما واجهه وإلا لمات هلعًا.

عند نهاية الزقاق فوجئ بشخص يقف في الظلال وفي فمه لفافة

تبغ.. رفع الغطاء مهددًا ليهشم رأسًا آخر، لكن الواقف في الظلال رفع كفه منذرًا:

ـ حذارِ.. أنا صديق.

لم يكن هذا الواقف الذي يرخي القبعة على وجهه سوى «جيريمي».. كان يحمل اسم «ج».

ـ أنت واجهت مصاص دماء.. لم تفهم هذا لكنها الحقيقة، وسوف أشرح لك كل شيء.

قال «جاكوب» بلسان معوج:

ـ هذا.. لص.. لص.. يريد سجائري!

ضحك الغريب في الظلام وقال:

ـ لا أحد يهاجم الناس في الأزقة من أجل السجائر.. فقط السجائر هي التي أنقذتك.. كل مصاصي الدماء عندهم وسواس قهري لهذا لا يمكن أن يتركوا شيئًا على الأرض دون أن يجمعوه.. في أوروبا الشرقية ينصحونك عند المرور على المقابر ليلًا أن تملأ جيوبك بالحبوب كي تنثرها وقت الهجمة.

ثم نفث المزيد من دخان السيجارة، وقال:

ـ ستعرف هذا وأكثر منه فيما بعد.. فقط أنا أبحث عمن واجهوا مصاص دماء وظلوا أحياء.. هؤلاء هم الرجال الذين أريدهم.

ـ أنت تهذي!

حك «جاكوب» رأسه، ونظر إلى الجدران المظلمة ذات الرائحة الكريهة، وقال:

ـ وكيف عرفت أن هذا الشيء سيهاجمني؟



في الظلام جاء صوت «جيريمي»:
ـ لأن «مايكل المسعور» يعمل هنا في هذا الزقاق.. أجوب هذا الزقاق من وقت إلى آخر بحثًا عنه، واليوم كانت الفرصة ممتازة.. له ولنا.

سمعا صوت صرخة شنيعة، ثم صوت سكين تضرب الحجر.
قال «جيريمي» وهو يمسك بيد الرجل:
ـ لقد أنهى الرفاق قصته.. «مايكل المسعور» لم يعد له وجود ولم يعد لجسده رأس.. والآن هل تأتي معي؟
سيأتي معك بالطبع ولنرَ ما سيحدث...

* * *

هل تريد مثالًا آخر؟ خذ عندك...
ترجل «جاك مكديمروت» عضو الكونجرس من السيارة، ولوح بذراعه للسائق كي يأخذها إلى المرآب.. كان في العقد الخامس من عمره، يضع نظارة سوداء ويلبس بذلة أنيقة غالية الثمن.. باختصار: يبدو وغدًا ومن الطراز المتورط في مئات الفضائح وقضايا الفساد.. على الأرجح لديه عشيقة في مكان ما كذلك، فالفساد يأتي في حزمة واحدة.

توقف ليشعل سيجارًا غليظًا يضفي عليه ملامح «التايكون» التي يعشقها، ثم مشى في الممر الطويل بين البنايتين قاصدًا مكتب المحاماة.

احترس من هؤلاء الرجال! قلت لك أن تحترس!
تنهمر عليه الطلقات من مكان ما.. هناك خمسة رجال أحاطوا به

في الممر، وأطلق اثنان الرصاص من الأمام، وأطلق ثلاثة الرصاص من الخلف.. وكان يعرف جيدًا أنه لن يموت.

تحركت الدودة العملاقة الظامئة في أحشائه.. الدودة التي تشبه شجيرة تتشعب في كل شيء وتغرس ممصاتها في كل أنسجته.. يعرفها ويشعر بها منذ زمن.

لكن هناك شيئًا ليس على ما يرام.. إن الرصاص قد مزق الدودة ذاتها.. هؤلاء القوم قد عرفوا كيف يفتكون به إذن! لا بد أن هذه رصاصات فضية!

تهاوى على الأرض على ركبتيه، وتساقطت الأوراق التي يحملها. نادي أعداء مصاصي الدماء.. لا شك في هذا.. لقد ظفروا به.. سمع عنهم وعرف أساليبهم لكنه لم يتخيل أن يعرفوا سره أو يجدوه.

الرصاصة التالية أصابت رأسه.. وهكذا بدأ الظلام الأبدي العظيم وكف عن الاستنتاج.

وسرعان ما كان الرجال يركبون سيارة سوداء انطلقت تنهب الأرض نهبًا.

لقد صار مصاصو الدماء هم الطرف الأضعف والأقرب للانقراض في الفترة الأخيرة.. السبب هو أن «جيريمي» ـ أو «ج» ـ يجيد عمله فعلًا. تطور شخصية يسعد أي كاتب سيناريو في العالم.

كان يعرف أن مصاصي الدماء تغلغلوا في كل شيء، وكل مكان، وقد استعان ببعض المخبرين وببعض المحامين ليعرف فيمن يشك.. هكذا صارت هناك قضية مص دم سياسية للمرَّة الأولى.

صارت لديه قوائم ممتازة.. وهذه القوائم تمت تصفيتها عن طريق



الثوم، وعن طريق المعاصم المغطاة، وعن طريق المراقبة.. هكذا صار لديه ثلاثون اسمًا.. ثلاثون اسمًا يجب تدميرها لينتهي الوباء.

المشكلة هي أنه يعتبر خارجًا على القانون، لذا يعتبر كل رجل شرطة عدوًّا له، وفي الوقت ذاته هو مهدد في كل لحظة بأن يجده مصاصو الدماء، لذا كان يلعب ألعابًا غاية في التعقيد، ويسافر لعدة أماكن، ويبدل مسكنه، ويبدل هاتفه، وكلمات السر التي يتصل بها بالرجال.

لكنه بدأ يشعر بالخطر الحقيقي عندما...

(٤)

دخلت منى إلى الحمَّام وأغلقت الباب.

اتجهت للمرآة، ووقفت ترقب وجهها بعض الوقت.

لا يوجد شيء.. لم تتغير ملامحها جدًّا.. فقط اكتسبت بعض البرود واللامبالاة، كما أن هناك عروقًا واهنة تحت الجلد.. فروع شجرة زرقاء...

وقفت تتأمل ملامحها طويلًا.. رفعت الشفة العليا لترمق لثتها.

كانت تتغير.. تعرف هذا جيدًا، وتعتقد أنه ناجم عن تلك الأقراص التي أعطاها لها عفيفي.. لقد خدعها.. الأقراص تؤذي بالتأكيد.

لماذا صارت تخشى ضوء الشمس؟ ولماذا وجدت تلك البقع المليئة بالفراء في جلد بطنها؟ لماذا تشعر بهذه الحاجة المتلظية إلى الدم؟



لقد قامت بمغامرة بسيطة، لكنها لن تكررها أبدًا.

هكذا أخرجت من جيب البيجامة ذلك الموسى.. وقفت تنظر إلى نفسها في ثبات.. هي لن تنتحر، بل ستقتل وحشًا.. تعرف هذا وتؤمن به. بموتها سيكون العالم مكانًا أجمل وأكثر أمنًا.

جرت بالنصل على الشريان في ساعدها.. تدفق الدم...

لا ألم.. سوف ينتهي كل شيء سريعًا.. أغمضت عينيها وجلست على الأرض.. سوف تأتي الغيبوبة حالًا.. وسوف تكون في هذا رحمة.

ولكن.. هناك شيء غريب...

نظرت إلى ساعدها، فرأت تلك الأطراف الهدبية تبرز من الجرح.. كأن هناك أخطبوطًا حبيسًا تحت الجلد.. برزت الأطراف الهدبية وراحت تبحث يمينًا ويسارًا، ثم راح الجرح يلتئم بشكل مخيف.. كأنها لقطة من فيلم سينمائي.

هناك شيء حبيس في جسدي.. وهذا الشيء لا يمكن القضاء عليه!

تكورت جوار الحوض، وراحت ترتجف رعبًا وتبكي.

قالت لنفسها وهي ترمق صورتها في المرآة:

ـ يا لهذه «السخمطة» التي أعيشها!

وانفجرت تضحك في هستيريا ومرارة، لأن الكلمة بدت لها مضحكة.. في الآن ذاته ثمة شيء مخيف هنا.. شيء يذكرك بذكرى قديمة.. قديمة لا تعي ما هي.. الواقع أن منى لا تعرف أنها تلفظ اسم «سخمت» المعبودة مصاصة الدماء التي ظلت



تُخيف المصريين منذ عصر الفراعنة حتى اليوم.. إنها مصدر لفظة «سخمطة» الشهيرة.

* * *

في هذا الوقت تقريبًا كان «جيريمي» في الطائرة المتوجهة إلى مصر، وهي رحلة دفع نفقتها بالكامل أحد أصحاب الشركات الذين يؤمنون بالخطر الزاحف على العالم.

كان يعرف منذ البداية أن شيئًا مروعًا يدور هناك، وقد تعلَّم من «ك» أن «سخمت» لها دور في هذه القصة.

النظرية التي كوَّنها هي أن هناك دورًا لتأثير السحر الفرعوني الطقسي لأقدم مصاصة دماء في التاريخ.. هكذا جاء «الجانجريل» إلى العالم، وهكذا على الأرجح تعج بهم مصر.

لقد عاد كثير من مصاصي الدماء الذين ارتحلوا إلى مصر، لكنهم جميعًا بلا استثناء صاروا «جانجريل».. وهذا يعني أن شيئًا مرعبًا يجري هناك عبر المحيط الأطلنطي.

يجب أن يكون حذرًا من دون رجاله.

لكنه كان يعرف أن هذه الرحلة ضرورية، ولو لم يقم بها لانتهى منه مصاصو الدماء خلال أشهر.. وقد عرف هذه الحقيقة من تجربة قاسية فعلًا.

إنه الثالث والعشرون من أبريل...

لقد استقر «جيريمي» في القاهرة، ثم حجز رحلة نيلية إلى الأقصر.

الكرنك...

هناك يمكنك أن تمشي في معبد «بتاح».. يمكنك أن تتأمل

الجدران المتآكلة، وتفكر كم أن الكرنك معبد شديد التعقيد.. إنه عدة معابد متداخلة.. كل ديانات مصر القديمة الوثنية تركت أثرًا فيه، وكذلك كل العصور.

لا يمكن القول إن «جيريمي» كان يعرف ما يريده بالضبط هناك.

كان يعرف الثلاثية الشهيرة المكونة من «بتاح» و«سخمت» و«نفرتم». قلب المعبد بناه «تحتمس الثالث» الغازي العظيم. هناك الكثير من لمسات البطالمة في المكان، لكنهم لم يكتبوا أسماءهم على الجدران كما هو متوقع، فقط اكتفوا بإصلاح ما تلف وتركوا الأسماء القديمة كما هي.

يلتقط صورة.. كليك...

للأسف، لا تنطبق قواعد مصاصي الدماء كاملة على هؤلاء وإلَّا لصارت الحياة رائعة.. هم يتحركون في النور ويظهرون في الصور.. هكذا يصعب فعلًا أن تعرف من يحيطون بك.. مَن يدري؟ ربما كانوا كلهم مصاصي دماء.

كان قد غيَّر ملامحه قدر الإمكان، ووضع شاربًا كثًّا، وثبت عوينات غليظة.. لا يعرف ممن يتوارى.. على كل حال يعرف أن عليه أن يكون حذرًا من أي أمريكي.

قال له الدليل المصري الشاب:

ـ معبد «بتاح».. اكتشفه «ليجران» عام ١٩٠٠.

ثم تلفت الفتى الصعيدي الأسمر حوله وحك شعره الخشن، وقال:

ـ برغم هذا.. هناك أقاويل كثيرة حول هذا المكان.. قيل إن أمنا

الغولة موجودة هنا بالذات.. أو أم الأساور ذات الشخاليل.. لقد اختفى سبعة أطفال بلا أثر ولا تفسير، ولهذا كان العمال يكرهون الحفر في هذه المنطقة، وعندما قاموا بالحفر وجدوا... وجدوا أمنا الغولة فعلًا...

قال «جيريمي» وقد فهم المقصود:

ـ تمثال المرأة ذات رأس الأسد.

قال الدليل:

ـ «سخمت».. نعم.. لكن العثور على التمثال أراح القوم.. لقد شعروا أن «ليجران» قد صار بهذا هو سيد الغولة.

هناك خمس بوابات أضيفت فيما بعد إلى هذا المعبد.

يلتقط «جيريمي» المزيد من الصور.. كليك.. كليك...

شعر بقشعريرة تسري في عموده الفقري.

لو كان هذا معبد «سخمت»، و«سخمت» أول مصاص دماء في التاريخ، فإن من السهل معرفة مصدر أساطير الغولة، ومعرفة ما حدث للصبية الذين اختفوا.

شيء ما مخيف حدث عام ١٩٠٠، وربما ما زال يحدث حتى اليوم.

لو كان تقديره صائبًا، فهو في المكان الصحيح.

هنا قلب سر «سخمت» على الأرجح.

* * *

بعد يوم واحد...

عند منتصف الليل مشى «جيريمي» في شوارع الأقصر شارد الذهن.

كان ناصر، الشاب الصعيدي، ينتظره هناك ليقوده عبر طرق ملتوية إلى داخل معبد الكرنك. من العسير جدًّا أن تنجح في التسلل ليلًا، لكن بعون ناصر استطاع أن يفعل هذا.. وفي النهاية صار وحيدًا.

ـ خذ بالك.. الكرنك يمتلئ بالعفاريت ليلًا!

من السهل أن تصدق هذا. أين تذهب العفاريت إن لم يكن هنا؟ عمَّ تبحث يا أحمق؟ القصة كلها أكبر منك بمراحل...

لكنك تتحرك هنا بهدف واحد.. أنت تعرف ليلة ٢٤ أبريل وما يحدث فيها.. ليلة القديس «جورج» التي تكلم عنها «ك».. في هذه الليلة يخرج مصاصو الدماء ليحدثوا الأهوال.. وقد كان من حسن الطالع أن الموعد كان قريبًا.. ظريف أن يأتي هذا التاريخ وأنت هنا بالذات.. في هذا المكان بالذات.

معبد الكرنك عملاق، ومن الممكن أن تضل طريقك هنا، دعك من أن الظلام دامس ويجمد الدم في العروق...

كان يمسك بالكشاف، وقد لف أنامله حوله لتخرج حزمة ضوء ضعيفة.. يتحسس المسدس في حزامه والمدية في جيبه.. يمشي وسط التماثيل والمسلات والأعمدة.. كل شيء في هذا الظلام صار شبحًا عملاقًا.

كلب أشعث متوحش يزأر بالقرب منه وقد انتصب الشعر حول عنقه.

ربما هذا ابن آوى وليس كلبًا.

ليلة القديس «جورج».. ربما ليس للقديس «جورج» تأثير هنا في مصر؟

لا يدري متى ولا كيف وجد ذلك الظل يثب عليه من أعلى.

صار فوق كتفيه.. كانت أعصابه مشدودة كالوتر فأطلق صرخة مريعة، ثم أنشب مخالبه ـ مخالب «جيريمي» ـ في المهاجم.. ومن جيبه أخرج المسدس...

كان المهاجم شرسًا، لكنه خفيف الوزن، وقد استطاع «جيريمي» أن يسقطه على الأرض جوار ضوء الكشاف الواهن، وصوب المسدس على رأسه.. هنا رأى أعنف وأشرس وجه يمكن تخيله، لكنه كان وجه فتاة!

من انقض عليه في الظلام كان فتاة شبه جميلة.. واضح أنها مصرية.

لكنه عرف من عوائها واللعاب المتساقط منها وحركتها غير الآدمية أنها منهم.. إنها مصاص دماء، وإذن فرحلته الشاقة من أمريكا لم تكن مجرد حماقة.

قالت الفتاة وهي تشهق واللعاب يسيل من فمها:

ـ هلم! انتهِ من هذا كله.. إنك إن تقتلني تحررني.

كانت تتكلم الإنجليزية لأنها أدركت على الفور أنه ليس مصريًا، وأدرك هو القصة بلا جهد.. عذاب التحول.. إنها تنزلق في حفرة الشر، لكنها لا تريد أن تنزلق أكثر، وبرغم هذا هناك هذه الحاجة الملحة للدم.. الظمأ المستعر الذي لا يرتوي أبدًا.

ظل يلهث لدقيقة، وقد صوب الفوهة إلى فودها، ثم حزم أمره.. أبعد الفوهة ونهض.. إن تحولها لم يكتمل بعد، لذا كان قتلها صعبًا بالفعل.. هذا ليس قتالًا بل هو قتل.

هناك جلست على الأرض جوار كشاف عملاق مكسور من كشافات المعبد، وقد أحاط بها ابن آوى أو اثنان، فبدت كأنها شيطان خرج من الأرض.

ـ منذ متى بدأ تحوُّلك؟

ـ منذ شهر.

ساد الصمت بضع لحظات.. كان يعرف القصة بالتقريب.. لكن لماذا؟

ـ هل تعرفين آخرين؟

أدركت على الفور أنه يعرف ما يبحث عنه، فقالت وهي تبعد الشعر اللزج عن وجهها:

ـ خطيبي.. صديقتي.. عددهم يزداد...

ـ وكم منهم هنا هذه الليلة؟

* * *

الإجابة:

كانوا يخرجون من وراء الأعمدة العملاقة.

انكمش «جيريمي» وهو يراقب واحدًا تلو آخر يمشي هناك.. يمشي في تلك الفرجة في المعبد.. يمشي حول تلك الحفرة.. يعبر هذه البقعة ربع المضيئة.. عددهم لا يقل عن عشرين.. حبس نفسه وراح يرتجف.. نظر إلى الفتاة فأدرك أنها خائفة مثله.. هذه علامة طيبة.. تحسس المسدس في عصبية.. وهناك في قلب تلك الساحة الممتدة الخالية كان الشيء يقف.. الشيء الذي يبلغ ارتفاعه أربعة أمتار.. كان مسربلًا في الظلام واللون الأسود، لكن بوسعك أن تدرك

أن رأسه عملاق، ولا يمكن أن يكون بشريًّا.. جسد بشري فارع.. جسد أنثى على الأرجح، لكن الرأس يختلف.

رائحة عطنة.. رائحة الدماء المسفوحة.

ثم دوى صوت الزئير الذي ارتجت له الجدران والأعمدة.. زئير أسد لا شك فيه.

«سخمت».. نحن نتكلم عن «سخمت».

مسخ دفين كان هنا منذ زمن سحيق.. مسخ يخرج الليلة بالذات، وهؤلاء يعرفون الموعد، وهو يعرف الموعد.. هذا المسخ هو الشيء الذي احتشد حوله مصاصو الدماء في العالم كله، وهو الذي جاء الأمريكان ليقتربوا منه.. وبعدها بدأت تغيرات جسدية تحدث للناس.. لعنة «سخمت» تعود للحياة!

أول من سمع الزئير وأصابه الذعر كانا رجلي أمن مصريين.. جلسا يشربان الشاي فرأيا السماء تتوهج بلون أحمر.. حمل كل منهما بندقيته وهرع يرى ما هنالك، وعندما اقتربا من مكان معبد «بتاح» كان الموقف قد صار أقرب إلى جهنم.

وثب شخص على ظهر كل واحد منهما، وتشبث بأنامله في صدره، وأنشب أسنانه في عنقه.. الدم تناثر في كل مكان.. وسقط الرجلان.

كان «جيريمي» ينظر في توتر إلى ذلك الشيء العملاق الواقف وحده في ساحة معبد «بتاح».. لا يبدو بتاتًا أنه يتابع ما يجري ولا يهتم به.. كان «جيريمي» يزن المسدس في يده.. طلقة نحو ذلك المسخ؟ مستحيل.. لن تُحدث أي أثر، ولسوف تؤدي إلى تفجير غضبه كأنه بركان.



ماذا كان سيحدث في تلك الليلة؟ لا أحد يعرف.. لكنْ هناك طقس مهم كان يتضمن احتشاد مصاصي الدماء الجُدد.. لا يجرؤ على التخمين.

صرخت الفتاة فجأة كأنها ملسوعة...

انطلقت تعدو فارة منه وهي تصرخ بلا توقف، وكانت تترنح كأنها ثملة.. كانت تركض نحو المسخ العملاق الواقف في المعبد.

ـ انتظري يا بلهاء!

الآن سوف يفعل الشيء الذي كان يرجئه حتى النهاية وعليه أن يقوم به.. هناك تلك القنبلة الصغيرة المعلقة إلى جوار خصره.. ربما لا تفعل شيئًا، وربما تفعل كل شيء.. والأسوأ أنها قد تدمر جزءًا من هذا المعبد.. لكن عليه أن يخاطر.

مد يده وأمسك بها.

تذكر كل مشاهد فيتنام التي رآها من قبل، وانطلق يجري نحو معبد «بتاح» قاصدًا هذا المسخ الواقف.. رفع القنبلة...

سمع مصاصي الدماء قادمين من عدة أماكن.

استعد للحظة القاسية.. وداعًا يا «سخمت» أو شبيهتها.. لا أعرف إن كانت هذه القنبلة ستُحدث أثرًا.. احتمال واهٍ جدًّا، ومعنى هذا أنني الضحية القادمة.

ـ وداعًا!! فلتسعد يا «ك» حيثما كنت بهذا المشهد.

واستعد لينزع الزناد...

هنا حدث شيء غريب.. لقد استدار له وجه الأسد المفزع العملاق، والعينان الناريتان كانتا تنظران إليه هو بالذات...



وسمع صوتًا يتردد في ذهنه:

ـ أنا هو «ك»!!.. «ك» هو أنا!!

(٥)

هاوية بلا قرار...

بلا قراااااااااااااااااار...

أريد أن أضع قدمي على شيء وبعدها أفكر.

هذا ليس عدلًا!

* * *

عندما ترى العالم وأنت تفيق من غيبوبة، وعندما ترى العالم من خلال وجوه زائغة تنظر إليك من أعلى، وعندما ترى العالم عندما تكبر الأشياء البعيدة وتصغر الأشياء القريبة فيما يُطلق عليه السينمائيون تأثير «دولي زوم» (Dolly zoom)... عندما يحدث هذا فأنت توشك على أن تفقد وعيك من جديد.

كانوا يحيطون به.

رأى وجوهًا سمراء شرقية الملامح، ورأى وجهًا آخر يعرفه، وسمع من يقول له بالإنجليزية:

ـ أنت تتعافى.

همس من بين شفتين ملتصقتين:

ـ «سخمت»!



جاءه صوت من يقول:

ـ تلك هي المشكلة.

ثم انحنى نحوه ذلك الوجه الأسمر الوسيم، ليقول له بصوت مهدئ ولكنة إنجليزية جيدة:

ـ يجب أن تتحرر من هذا الوهم.. أنا دكتور عفيفي محمود.. طبيب نفسي.. هل تذكر أي شيء عما حدث؟ هل تذكر سبب دخولك معبد الكرنك في تلك الليلة؟

قال بصوت مبحوح:

ـ لا أذكر.

ونظر إلى معصمه المضمد.. يبدو أنه حاول الانتحار كذلك.. لكن متى؟

أشار دكتور عفيفي إلى ممرضة سمراء جميلة القسمات، وأمرها:

ـ منى.. أعطيه نصف أمبول من «الديازيبام».

* * *

في حديقة المستشفى وهو يستمتع بالنقاهة، كان يمضي وقتًا طويلًا مع دكتور عفيفي.. دكتور عفيفي هو الذي أخبره بكل شيء:

ـ أنت كنت تعيش في عالم متشابك من الهلاوس، وتتحدث عن منظمات سرية ومصاصي دماء.. جئت من الولايات المتحدة خصيصًا كي تواجه ما تطلق عليه تحالف مصاصي الدماء.. ربما لا تذكر أنك جئت إلى هذا المستشفى مرَّتين بسبب مهاجمتك أبرياء، ثم حاولت اقتحام معبد الكرنك.. ومن الواضح أنك

أقحمتنا جميعًا في الهلوسة.. الممرضات.. أنا.. معارفك في الولايات المتحدة.. الجميع...

ـ وهل شفيت؟

ابتلع دكتور عفيفي ريقه وقال:

ـ للأسف، قلنا إنك شفيت عدة مرَّات وفي كل مرَّة نكون مخطئين.. هناك ورقة طبية من الولايات المتحدة تزعم أن لديهم علاجًا فعالًا.

منهكًا ارتمى «جيريمي» على مقعد.. شاعرًا أن قدميه واهنتان جدًّا.. وراح يتأمل الضمادة الملفوفة حول معصمه.

«ك»، ونادي أعداء مصاصي الدماء، ومنى، والمواجهة في معبد «بتاح»، و«سخمت»... كل هذا وهم صنعه خياله؟ وقد استعمل قطع شطرنج موجودة في عالم الواقع.. دكتور عفيفي صار المرشد عفيفي.. الممرضة منى هي خطيبة عفيفي...

فكر في هذا، وشعر أن أطنانًا فوق أطنان من الهموم تجثم على روحه.. أريد أن أتحرر.. أريد أن أرى النور.

المساء.. لقاء مندوب السفارة الأمريكية الذي سيرتب إعادته إلى الولايات المتحدة ليستكمل علاجه.. اسمه «جاكوب».. يعرفه جيدًا لأنهما اشتركا في قتل مصاصي الدماء مرارًا (في الوهم طبعًا).. لديهما حشد من الذكريات المشتركة التي لا وجود لها!

في المساء انفرد بنفسه في غرفته...

دخل إلى الحمَّام.. أغلقه على نفسه وهو يشعر بدوار قاتل.. يريد موسى بأي شكل.. بحث كثيرًا فلم يجد.. لا أحد يضع موسى في

غرفة مجنون إلا إذا كان مجنونًا.. هكذا هوى على الضمادة وراح يمزقها بأسنانه.. في النهاية يرى معصمه.. الوشم...

الثعبانان اللذان يلتفان حول بعضهما وكل واحد يلتهم ذيل الآخر.

هذا هو السبب.. يريدون ألّا يرى هذا الشعار.. لم يحاول قطع شرايينه إذن.

في الظلام، وفي ساعات الفجر الأولى، كان رأسه يدور.. العرق يغمر ثيابه كلها.. وكان يسمع.. يرى.. يحس.

«سخمت» هناك في الغرفة.. تقف في الضوء الخافت وقد انحنى رأسها كي لا يضرب السقف.. ترد على كل أسئلته وتخبره بالحقيقة.. تزأر.. تنبعث منها رائحة الأسود الكريهة.

أنت صرت منا...

لماذا جئت إلى مصر؟

لم تأتِ لتقضي على مصاصي الدماء، بل لتشارك في الطقوس الخاصة بهم، لتكون منهم.. لكنك لم تعرف هذا.. أنت ملكي للأبد منذ هذه اللحظة.

تدوي ضحكتها اللعينة، فتنزف الجدران وترتج الكهوف وتعوي الذئاب.

ـ أنت كاذبة!

ـ يمكنك أن تقول هذا.. إلى أن ترى بطنك!

في لهفة نزع الثياب عن أسفل بطنه.. راح يتحسس ما حول الصرة.. هناك خشونة غير معتادة.. لم يكن مشعرًا في الطبيعة، لهذا أدرك أن هذا الموضع كان ينمو فيه شعر كثيف وقد تمت إزالته بلا عناية.



ربما كانت هناك رقعة فراء هنا؟

صاح في لهفة وهو يتمسك بزجاج المرآة الأملس:

ـ إنها الهلاوس.. لا يوجد شيء من هذا.. لا يوجد نادٍ لمصاصي الدماء.. ولا توجد «سخمت».. كل هذا هراء.. أنا أدمج كل الحقائق في هذه الأسطورة السخيفة.. لكن من أين جاء الوشم؟ ربما أنا صنعت الوشم عندما كنت في الولايات المتحدة واعتقدت أنه خاص بمصاصي الدماء؟ كنت أتصرف كمخرج بارع ينثر الإكسسوار للأكذوبة الكبرى التي صنعها.

لكن لو كان في كلام «سخمت» هذا شيء من الصحة، فأنت تحمل لعنة أبدية ضد البشرية.. أنت الشر يمشي على قدمين.

كر \\\\\\\\\\اش!

وجَّه لكمة قوية يحركها الغل والغيظ للزجاج، فتناثر في كل مكان وملأ الحوض.. هناك في شظايا الزجاج رأى آلاف الوجوه التي تعبر عن حالته بصدق.

كانت يده تنزف.. أدرك أن الجرح لا يلتئم، ولا توجد أطراف هدبية تبرز من الجلد.

إذن هو يمكن أن يموت.. وموته يعني القضاء على مصاصي الدماء وعلى نادي أعداء مصاصي الدماء معًا.. لكن لماذا يموت إذا كان هذا كله هلوسة؟!

عندما قطع الشريان بقطعة زجاج مكسورة، استند إلى الحوض وراح يرمق انعكاس وجهه في بقايا المرآة.. كان يمقت الجدل طيلة حياته، وها هو ذا يحل المشكلة بطريقة جذرية.. قطع عقدة

«جورديان».. لو كانت هلوسة فقد انتهت.. لو كان مصاص دماء فسوف يموت...

همس في سخرية مريرة، والظلام يزحف على حواف مجال الرؤية:

ـ يا سادة.. إنني أعلن نهاية نادي أعداء مصاصي الدماء.





تنصُّت

«لكن عماد كان موقنًا أن الأمور ليست على ما يرام في هذا المختبر.. ذات مرَّة قام بغلي الماء لعمل شاي.. غادر المطبخ وتكلم ومزح وتجادل... إلخ، ثم تذكر أن الشاي ما زال على الموقد بعد ربع ساعة.. جرى لينقذ الموقف ويوقف الحريق، لكنه اكتشف أن الماء ما زال باردًا.. هذه النار برد وسلام بالمعنى الحرفي».



عندما وجد عماد جثة مصطفى الملقاة كالشيء في ركن الشقة، وقد تهشم عنقها والتوى، ورأى نظرة الرعب في العينين، أدرك أن اللعبة دخلت طورًا خطيرًا.

للحظات تذكّر وجه مصطفى الودود، والنظرة شبه الناعسة في عينيه، وهي نظرة تعوَّد أن يراها في صور من ماتوا.. طريقته في الكلام ببطء مع انتقاء الكلمات.. حكمته.. الطريقة التي يجد بها حلولًا لأعقد المشاكل. لقد خسر العالم عقلًا ثريًّا، لكن أفضل شيء في هذه الأمور هو أن العالم لا يشعر بالثكل.. يفقد عقلًا أو لا يفقد.. ما المشكلة؟

ركل العوينات المهشمة الملقاة على بُعد أمتار، وقرر أنه سيغادر المكان.. لا يريد التورط بأي شكل في هذا المشهد.

توقف للحظة، ثم بحث عن مفاتيح المختبر.. لا بد من شخص يكمل العمل.. يعرف أنها مهمة غير هينة.. يعرف أنها مسؤولية ساحقة.. يعرف أن معلوماته الفيزيائية تفوق الصفر بقليل، لكنه يعرف

كذلك أنه مثابر، وبوسعه أن ينجح في أي شيء يريده، باستثناء عزف الكمان طبعًا.. لا أحد يجيد الموسيقى لمجرد أنه أراد ذلك.

* * *

حقًّا كان مصطفى يجيد عزف الموسيقى، وكان يمسك بالكمان ويداعبه بالقوس، فتشعر أنه يمزق نياط قلبه نفسه.. عندما تتكلم قطعة الخشب وتهمس بقصة حب منسية.

عاد مصطفى من «ديلاوير» في أوهايو بالولايات المتحدة مؤخرًا، وكان يدرس الفيزياء ويُدرِّسها.. الثانية براء مشدَّدة.. إنه من تلك العقول المذهلة التي يتكلم عنها المصريون عندما يريدون إثبات أنهم ينجحون في الخارج دائمًا ويفشلون في الداخل دائمًا.. الأمل المقدس لكل شاب يحمل مظروف الأوراق ويقف أمام القنصلية أو السفارة الغربية، ورأسه مفعم بالأحلام، ويعتقد واهمًا أو محقًّا أنه من ذات الطراز الذي يتوهج في الخارج.

عندما عاد مصطفى زاره صديق طفولته عماد.. كلاهما في الأربعين، وكلاهما غير متزوج، على أن أحدهما عبقري في الفيزياء، والآخر عبقري في بيع السيارات.. والحقيقة أن أحدهما كان غير قادر البتة على منافسة الآخر.

عندما زار عماد الرجل في مختبره الذي استأجره في المقطم، وجد أن المكان أقرب لاستوديو صوت على قمة بناية عالية.

ـ ماذا تفعل بالضبط؟

ـ لا شيء.

بدا هذا سببًا كافيًا للعودة من الولايات المتحدة فعلًا.. أن تعود

إلى وطنك لتعمل لا شيء.. التهام شطائر الطعمية، وشرب الشاي، ثم عزف الكمان لعدة ساعات.

لكن عماد بعد قليل بدأ يفهم أن صاحبه العبقري يقوم بعملية معقدة جدًّا، هي الإنصات إلى أصوات الفضاء.

هناك جهاز اتصال كبير في الغرفة.. جهاز يشبه غسالة فول أوتوماتيك كاملة، وهناك حزمة أسلاك تتصل بجهازي كمبيوتر.. وهناك ما يشبه الطبق الموجه للفضاء، بينما يعتمد مصطفى على سماعتين يصغي بهما معظم الوقت.

كان قد رأى فيلم «اتصال» الذي كتب قصته العالم وأديب الخيال العلمي «كارل ساجان»، ويعرف شيئًا عن هذه الأمور، على الأقل يعرف كيف تبدو من الخارج.

قال له مصطفى:

ـ أقضي الساعات هنا أصغي للفضاء.. هناك كثيرون منا في أرجاء العالم، وكلهم يفعلون الشيء ذاته.

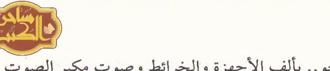
قال عماد في استخفاف:

ـ لا أعرف جدوى ما تقومون به، لكني أراهم يتعاملون مع مراصد عملاقة.. لم أرَ أحدًا يتعامل مع طبق كأنه يريد التقاط أفلام عارية من القمر الأوروبي!

لم يشاركه مصطفى السخرية.. كان جادًّا جدًّا.

ـ هذا هو ما قمت به.. أنا توصلت إلى نتائج ممتازة من هذا الطبق الصغير الذي تتكلم عنه.

في الأيام التالية زار عماد صديقه مرارًا في ذلك المختبر، وبدأ



يألف الجو.. يألف الأجهزة والخرائط وصوت مكبر الصوت الرتيب.

أخبره مصطفى أن هذا الذي يقوم به جزء من مشروع «SETI». بالطبع لم يفوِّت عماد فرصة السخرية من أن الاسم يُذكره بـ«ستي وسيدي»، لكن مصطفى لم يكن في مزاج رائق للمزاح.

قال له إن «SETI» هي الحروف الأولى من جملة «search for extraterrestrial intelligence»، أي البحث عن ذكاء غير أرضي. باختصار: محاولة إثبات أن هناك كائنات فضائية. جزء كبير من هذا المشروع هو استقبال الإشارات القادمة من الفضاء ومحاولة فهمها. هذا شيء يفهمه كل من رأى الفيلم أو قرأ رواية «اتصال» كما قلنا. وقد بدأ الإنسان هذه المحاولات منذ اختراع الراديو حتى اليوم.

من وقت إلى آخر تطالعنا الصحف بخبر عن التقاط إشارات غير أرضية من الفضاء.. أشهر هذه القصص وقع عام ١٩٧٧، حينما التقط عالم الفضاء «إهمان» إشارة ضيقة الحزام، استمرت ٧٢ ثانية ولم تتكرر بعدها قَطُّ.. كان ذلك من تلسكوب شهير اسمه «الأذن الكبرى» في أوهايو.. كانت الإشارات قادمة من كوكبة «القوس».. هذه الإشارة أثارت ذهول الرجل، فكتب جوارها «واو» (Wow)، وهذا هو الاسم الذي عُرفت به هذه الموجة في الكتب العلمية.. موجات «واو».

يقوم العلماء بتحويل الإشارات لشفرة معينة يعرفونها.. مثلًا الواو هي «6EQUJ5».. وهي تحدد شدة الموجات والمسافة بينها..



ثم يحددون بالتقريب مصدر الموجات، وهو هنا نجم اسمه «تاو ساجيتاري». هذه موجات قوية جدًّا وغير مسبوقة خضعت لتفسيرات عديدة.. حتى «إهمان» نفسه قال إنها على الأرجح جاءت من مصدر أرضي انعكس على سحابة غبار كوني، لكنه كذلك لم يستبعد أن يكون هناك مصدر غير أرضي.

هناك علماء كثيرون قالوا إن علينا قبول حقيقة أنه لا توجد عوالم أخرى.. لا توجد كائنات فضائية. ما يحدث في «SETI» هو علم زائف لا يمكن إثباته.

لكن في العام ٢٠٠٧ تم التقاط إشارة قوية متكررة.. وهو ما يسمونه «FRBs» أو انفجارات راديو سريعة. حسب العلماء أنها تصادم نجوم نيوترونية، ثم تبين أنها متكررة بشكل لا يمكن أن يكون فيزيائيًّا.. لا توجد بطارية تعيد شحن نفسها بهذه السرعة.

كان مصطفى يفتخر بأنه استطاع تشييد نظام للتنصت لم يكلف إلا ملاليم، ويمكن به الاستغناء عن تلك المراصد العملاقة المخيفة المصوبة للفضاء.

تساءل عماد الذي فهم عُشر هذا الكلام بعسر بالغ:

ـ ما جدوى ما تقوم به؟ سؤال وجود كائنات فضائية أم لا، يُطرح منذ عرف الإنسان الفضاء، ومن الواضح أننا لن نعرف إجابته أبدًا!

وقف مصطفى أمام لوحة مليئة بالحروف والأرقام معلقة على الجدار، وقال:

ـ عندما تثبت أن هناك كائنات فضائية حقًّا، فلن يتساءل أحد بعدها



عن الجدوى.. أنت تفهم هذه الأمور.. لو لم ينجح «جراهام بل» في اختراع الهاتف لقالوا إنه مخبول يكلم البلاستيك.. عندما نجحت فكرته قالوا إنه عبقري. ما يفصل بين أن أكون مخبولًا أو أكون «جاليليو» القرن الواحد والعشرين هو أن أثبت كلامي.. وكلامي يقول إن هناك إشارات فضائية فعلًا.. وهذه الإشارات تقول شيئًا.. اللغز مضنٍ ومعقد، لكني اقتربت جدًّا من الحل.

* * *

يعزف مصطفى على الكمان أغنية «ما خطرتش على بالك يوم» لأم كلثوم، فيقسم عماد أن الأوتار تنطق الحروف.. ثمة روح حبيسة تحاول التحرر في هذا الصندوق.. هل روح أم كلثوم نفسها في الغرفة؟

يُعِدُّ مصطفى بعض المكرونة مع الصلصة واللحم المفروم، ثم يفرغ الطنجرة في طبقين، يُقدِّم واحدًا لعماد ويتناول واحدًا.. يأكلان في صمت، ثم يشعل عماد لفافة تبغ، ويسأل صاحبه العبقري:

ـ هل تريد أن أجد لك سيارة ممتازة بثمن رخيص؟

يضرب مصطفى على جبهته ويضحك في تعب:

ـ أنت تمزح.. أنا لا أغادر هذا المكان إلا لأنام ساعات في بيتي.. وغالبًا ما أنام هنا حتى لا أفوت فرصة التقاط هذه الإشارات.. أنا آخر إنسان على ظهر الأرض يحتاج إلى سيارة.

يراقب عماد الأجهزة المتناثرة التي لا تكف عن إصدار صوت «بيب».. هدير القرص الصلب.. هدير مروحة. هذا مكان يغري

بالجنون.. الوحدة مع هذه الأصوات هي الطريق المضمون للخبال.

فجأة دوى صوت مختلف نوعًا، وراح المصباح الأحمر جوار شاشة الكمبيوتر يتوهج.

وثب مصطفى إلى المقعد وهتف:

ـ قادمة!

ثم وضع السماعات على رأسه، وجلس على مقعده المتحرك أمام شاشة الكمبيوتر.. ضغط على زر فبدأت لفافة ورق تخرج من الطابعة.

لحظات من التوتر، ثم هدأ كل شيء.. بعد صمت طال مزق طرف الورقة ليفصلها، وراح يرسم عليها بالدوائر.

سأله عماد في سماجة:

ـ هل تم الاتصال؟ متى تهبط أطباقهم الطائرة؟

لم يرد لأنه كان عاكفًا على ترجمة بعض الرموز، ثم قال:

ـ الصورة تتضح ببطء.. إنهم يرسلون إحداثيات صورة تتكون على طريقة الكلمات المتقاطعة.. أو طريقة الرسم بالأرقام، وهم يضيفون لها شيئًا في كل اتصال.

نهض عماد إلى المطبخ ليضع الأطباق.. صديقه يعيش حياة بوهيمية فعلًا، لدرجة أنه يشعر بتأنيب ضمير لو تركه دون غسل أطباق.. بسرعة يسخن الماء، ويغمس الليفة الخشنة في الصابون، ثم يغسل الأطباق والملاعق بلا براعة.

يشعل لفافة تبغ أخرى، ويدخل الحمَّام ليفرغ مثانته واللفافة



تتدلى من فمه.. هذا البيت المستأجر كمختبر قديم، لكن الحمّام قد تم تجهيزه بشكل أنيق.. «تشطيب سوبر لوكس» كما يقولون.

عاد إلى الغرفة حيث كان مصطفى يتأمل شاشة الكمبيوتر.

ـ ماذا ترى؟

كانت صورة مشوهة أقرب إلى صور الكمبيوتر القديمة المكونة من أرقام ١ وصفر.. أو اللوحات المرسومة بالآلة الكاتبة عندما كانت هناك آلات كاتبة.. لا بد أن تبتعد عن الصورة لتراها.

رمش عماد بعينه وابتعد أكثر.. ونظر إلى الشاشة:

ـ لا شيء.

قال مصطفى في إغراء:

ـ هذه التعاريج.. ألا توحي لك بخارطة؟

في إصرار قال عماد:

ـ نعم.. لا توحي.

ـ هذه خارطة.. أنا متأكد من هذا، لكنها لم تكتمل بعد.

ـ ولماذا تهتم كائنات فضائية بالجغرافيا إلى هذا الحد؟

حك مصطفى رأسه مفكرًا، ونزع عويناته ليهرس عينيه المرهقتين، ثم قال:

ـ الاحتمال الأول هو أنهم يخبرونني بمكان اللقاء، هناك لقاء حميم من النوع الثالث سيتم في هذه البقعة.. الاحتمال الثاني هو أنهم يخبرونني بمكان سفينة مدفونة خاصة بهم، على طريقة المنطقة ٥١ ومخلوق «روزويل».

كان عماد قد قرأ شيئًا عن هذه الأمور، وكان يعرف يقينًا أن مخلوق

«روزويل» دعابة سخيفة شربها العالم، وأن المنطقة ٥١ بلا أسرار غالبًا، وقيمتها الوحيدة هي جلب المال لمن يؤلفون الكتب التي تتحدث عنها، لكنه انتظر حتى يُنهي مصطفى كلامه.

أردف مصطفى:

ـ عندما أستكمل هذه الخارطة سوف تتضح أمور كثيرة.

لم يبدُ هذا السيناريو معقولًا أو محببًا لعماد.. كان تفكيره عمليًّا نفعيًّا جدًّا، وقد أحزنه أن يضيع صاحبه وقته في الأوهام، لكنه ظل يتردد على المختبر من وقت إلى آخر، ربما لأنه يحب مصطفى، وربما لأنه يحب عزف الكمان، وربما لأن الجو الغامض يروق له.

بدأت بعض الظواهر تثير قلقه.

مثلًا الظاهرة الغريبة التي تجعل جهاز الهاتف المحمول يتوقف أو يرسم أشكالًا غريبة على الشاشة، كلما جاء إلى المختبر. خطر له أن السبب هو التداخلات الفيزيائية من كل هذه الموجات، فلو طارت طائرة فوق هذا المختبر لسقطت، لكن مصطفى قال في ثقة إنه لا يجد سببًا لما يحدث.. نحن نتحدث عن موجات مختلفة تمامًا.

ـ يجب أن تصلح هاتفك.

لكن عماد كان موقنًا أن الأمور ليست على ما يرام في هذا المختبر.. ذات مرَّة قام بغلي الماء لعمل شاي.. غادر المطبخ وتكلم ومزح وتجادل... إلخ، ثم تذكر أن الشاي ما زال على الموقد بعد ربع ساعة.. جرى لينقذ الموقف ويوقف الحريق، لكنه اكتشف أن الماء ما زال باردًا.. هذه النار برد وسلام بالمعنى الحرفي.



انقطع عن زيارة صديقه أسبوعًا.. كان قد تورط في حادث سيارة وكان مشغولًا جدًّا.. ثم زار صاحبه هذه المرَّة في شقته الصغيرة. يبدو أنه لم يذهب إلى المختبر منذ فترة. كانت هذه هي المرَّة التي أعطاه فيها مصطفى نسخة من مفتاح الشقة لأنه يعيش وحده. من الحكمة ـ كما قال ـ أن يكون لدى المرء الوحيد من يقدر على دخول بيته: زوجة، أخ، صديق، لمسة ميلودرامية زائدة كما ترى.

بدا له مصطفى أميل للقلق، ولم يستطع فهم سبب هذا التوتر. مصطفى ليس من الطراز الذي يقلق بسبب الضرائب أو ارتفاع سعر البامية، ولا أسرة له.. يبدو أنه يعتمد على مدخرات معقولة تحميه من الفاقة.. ليست عليه مسؤوليات سوى أن يتأمل ويشرد.. هذه ليست مهمة مرهقة إلى هذا الحد كما ترى.

قال له مصطفى في تلك المرَّة:

ـ أعتقد أنني عائد إلى الولايات.. لقد انتهى عملي هنا.

بدا هذا غريبًا لعماد.. تأمل وجه صاحبه.. يمكنك بسهولة أن ترى العينين المرهقتين وراء العوينات، وترى الرجفة في ركن الفم، وترى الأنامل تؤدي رجفة «حبات المسبحة» إياها.. هذا شخص دانٍ من انهيار عصبي ومذعور جدًّا.. لكن ما السبب؟

ـ مصطفى.. هل تتعاطى عقارًا ما؟

نظر إليه مصطفى في عدم فهم.. واضح أنه لم يفهم السؤال.. إنه متوتر لدرجة أن الكلام المنطوق فقد تأثيره. عاد يسأله:

ـ ألن تعود إلى المختبر؟



نظر إليه مصطفى طويلًا، ثم قال:

ـ الحقيقة أنني غيرت وجهة نظري.. كانت نظرياتي خاطئة!

ـ هلَّا شرحت لي؟

فكر مصطفى قليلًا، ثم قال:

ـ لقد استكملت جزءًا من الصورة.. البيانات الرقمية لا تشير إلى خارطة على الإطلاق.. هذه الكيانات لا ترسل إليَّ إحداثيات.

ـ تريد القول إن هذا يتفق مع رأيي.. ضوضاء كونية يحسبها العلماء مهمة.. غالبًا هو صوت مدفع الليزر الصيني الذي يلعب به أطفال الجيران.

ـ ليس بالضبط.. هذه إشارات من كائنات عاقلة فعلًا.

وأشار إلى ملف سميك على المنضدة، وقال:

ـ كل ملاحظاتي هنا.. وهي ملاحظات أكثر نضجًا مما ظننت.. الاتصال أعقد من إحداثيات صورة كما تخيلت أولًا.

ثم أمسك بالكمان.. لديه كمان في شقته، وكمان صغير في المختبر.. وبدأ يعزف.. عندما يبدأ العزف فإنه ينسى كل شيء وتصير مقاطعته مستحيلة.

يذكر عماد هذه الجلسة جيدًا، لأنها ـ كما تعرف ـ كانت المرَّة الأخيرة التي يرى فيها مصطفى حيًّا.. لقد كانت جلسة طويلة مرهقة للأعصاب، لكنها كانت الأخيرة!!

* * *

عندما وجد عماد جثة مصطفى الملقاة كالشيء في ركن الشقة،



وقد تهشم عنقها والتوى، ورأى نظرة الرعب في العينين، أدرك أن اللعبة دخلت طورًا خطيرًا.

كانت كلمات مصطفى في الليلة السابقة غريبة موحية.. رباه!! لشد ما بدا مذعورًا.. يعرف هذا الذعر الوحشي عندما يلتمع في العيون، وأكثر العيون تخويفًا هي التي توجد في وجوه ناحلة ضامرة.. الوجه هنا يتحول كله إلى عينين.

كان قد جاء في موعده ودق الجرس مرارًا.. ليس هذا بموعد يغادر فيه مصطفى البيت.. هذه المرَّة تذكر أن معه المفتاح.. أولجه في القفل ودخل ليرى المشهد المخيف.

مصطفى مات وحده في شقته.. لا يوجد شيء يدل على أنه انتحر أو مات بطريقة معتادة.. لا يوجد تسرب غاز ولا عقاقير سامة.. لم يُطلق عليه الرصاص أو يُذبح.. مصطفى قُتل.. وقُتل بطريقة بشعة محيرة بلا شك. الشقة مغلقة من الداخل ككل قصص الغرف المغلقة التي تخصص فيها «جون ديكسون كار».. الأمر كله عصي على التفسير!

ما فعله هو أنه أخذ الملف السميك الذي يضعه مصطفى أمامه، وأخذ مفتاح المختبر وغادر الشقة.

كان عليه أن يقوم بواجب أكبر نحو صديقه الميت، لكنه كان عمليًّا، وقد أدرك أن الوفاة لغز لن تستطيع الشرطة حله.. هم فقط سيجعلون حياته جحيمًا، فهو المشتبه فيه رقم واحد لأنه يزور مصطفى في البيت والمختبر، هو الوحيد الذي يعرف الكثير عنه،

على الأرجح لا أحد يعرف بالمختبر سواه.. عليه أن يستقر هناك بعض الوقت محاولًا فهم ما كان مصطفى يريد قوله.. ليس من مصلحته ولا مصلحة الفقيد أن يُقبض عليه أو يتهموه بشيء.. سوف يتصل من هاتف عمومي ليبلغ الشرطة بأن رائحة غريبة تنبعث من الشقة كذا.

كانت الساعة الثانية بعد منتصف الليل عندما فتح باب المختبر الموجود في المقطم.. في الظلام الدامس كانت شاشات الكمبيوتر تعمل وتلك الآذان مسلطة للفضاء. لا تعرف هذه الأجهزة أن خالقها قد مات بعنق ملتوٍ.

أو ربما تعرف!!

أضاء عماد الأنوار، فبدأ نوع من البهجة والاطمئنان يتسللان إلى المكان.. لاحظ أن باب الثلاجة مفتوح، لكنها ما زالت تعمل والطعام بداخلها لم يفسد. مصطفى صديقه شارد الذهن كأي عالم آخر، وبالطبع يخلط بين الثلاجة وجهاز التكييف. أخرج زجاجة مياه غازية ففتحها ثم اتجه إلى الأريكة حيث الكمان الملقى، الكمان الذي كان قطعة من روح مصطفى.

همس له:

ـ صاحبك لن يعود.. وأنا حمار في العزف كما تعلم.

ثم مد يده الحرة ليقلب صفحات الملف الذي أخذه من صاحبه.

كان الموقف أسوأ مما توقع.. هذه صفحات مذكرة درس



خصوصي في الفيزياء أو أسوأ.. مستحيل أن تفهم شيئًا من الرموز والمنحنيات والدالات.. لا بد من أن يجد شخصًا يفهم الفيزياء.

«لقد استكملت جزءًا من الصورة.. البيانات الرقمية
لا تشير إلى خارطة على الإطلاق.. هذه الكائنات
لا ترسل إليَّ إحداثيات».

قالها مصطفى أمس، ولم يفهم معناها، وقال كذلك:

«الاتصال أعقد من إحداثيات صورة كما تخيلت أولًا».

هناك على الجدار كانت تلك الصورة الرقمية التي يقوم مصطفى بجمعها بالنقطة.. «بيكسل بيكسل» كما يقول.. لقد قام بطبعها على طابعة عريضة أو ربما «بلوتر»، ليظهر الشكل النهائي الذي لم يكتمل.. هناك ملايين الرموز.. لكنك من بعيد، من هذه المسافة، ترى ـ على طريقة الطباعة النقطية ـ أن هناك صورة، وهذه الصورة تتضح كلما ابتعدت أو أغمضت عينيك نصف إغماضة.. الصورة ليست خارطة على الإطلاق، بل هي ثلثان علويان لوجه امرأة.. ربما أنت مخطئ.. هذا التأثير الخادع يُعرف باسم «باريدوليا» (Pareidolia)، وهو نوع من محاولة المخ البشري لجعل العالم الخارجي المخيف مألوفًا.

ربما هي شخبطة، ربما هي امرأة، لكن المؤكد أنها ليست خارطة.

راح يُقلِّب الصفحات في الملف.

أخيرًا وجد ما يريده.. كلمات عربية.. هنالك في الصفحة الأخيرة. مصطفى قد قرر أن يكتب بالعربية بدلًا من كل هذه المعادلات..

خطه رديء طبعًا بسبب اعتياده الكتابة بالإنجليزية أو الرموز.. كانت الكلمات تقول:

«الحقيقة هي أنني أخطأت الطريق.. الإشارات التي أتلقاها جعلتني أعتقد أن هناك من يخاطبني من بُعد آخر.. أي: كائنات فضائية على كوكب آخر تحاول الاتصال وترسل إليَّ إحداثيات هبوطها. ثم بدأت أمور غريبة تحدث في المختبر: المقاعد تتحرك، كتابة على لوح الكتابة لم أكتبها أنا، صنابير الماء تنفتح، وفي مرَّة من المرَّات وجدت أنها تسيل دمًا، الصور تتحرك على الجدار.

هذه ليست تصرفات كائنات فضائية.. الكائنات الفضائية تحاول الاتصال، لكنها ليست هنا لتحرك وتتلف.. ثم هذا الشكل الذي يتجمع ببطء.. خطوة خطوة.. هذا وجه امرأة.. لا علاقة له بالخرائط.

ما أعتقده هو أن المختبر مسكون.. أنا لم أخترع جهازًا لالتقاط الإشارات الفضائية، بل ابتكرت جهاز تحضير أرواح!! لم أتصل ببُعد آخر، لكن اتصلت بعالم آخر!! ما حدث هو أن المختبر مليء بالأرواح، وهي تعبث بي!!

تفسير هذا؟ هناك نظريات عدة في ذهني، لكني أميل إلى الاعتقاد بأن هناك جثة في هذا المختبر! لاحظ أن الشقة كلها قديمة، لكن الحمَّام تم تجديده جيدًا.. لو أن هناك من دفن جثة في الحمَّام، وغطاها بالخرسانة ثم ثبَّت طبقة بورسلين فوقها فمَن يلاحظ؟ مَن كان المُلَّاك القدامى؟ وماذا كانوا يعملون؟ أفكر جديًّا في المجيء ببعض العمال ليزيلوا بورسلين الأرضية في



الحمَّام، لكني لا أملك الشجاعة، ولا الوقت.. أنا أعرف
يقينًا أن هناك جثة امرأة.. هذا الوجه الذي ترسمه لي
الإشارات هو وجهها.
أنا مذعور!!! العلامات المقلقة تتزايد، وعلى
الأرجح أنا على حق.. سوف أُنهي أوراقي بسرعة
وأعود إلى الولايات.. مصر قد أرهقت أعصابي».

أغلق عماد الملف شاعرًا بالحيرة.

مصطفى قد جُن حتمًا.. انتقل تفكيره من قمم العلمية المنطقية إلى كهوف الميثولوجية الميتافيزيقية.. ما كان عماد ليتصور أن يكتب صاحبه هذا.

نهض ليمشي في أرجاء المختبر.. دخل الحمَّام ليراقب البورسلين الأنيق...

هناك شيء غريب يحدث.. هو متأكد من هذا.. قصة الشاي الذي لا يغلي مثال بسيط.. لا يوجد مقعد يظل في مكانه مدة نصف ساعة في هذا المختبر.. الأنوار تعبث.. تلف موجات الهاتف...

هذه حركات أشباح أو «بولترجايست»، لكنه آخر من يؤمن بهذا الكلام.

أخرج الهاتف.. وجد أن هناك شبكة والحمد لله.. طلب أحد العمال الذين استعملهم ليجدد شقته قديمًا.. تعال غدًا ومعك مطرقة.. سوف نحطم بعض البورسلين.

ثم وقف يراقب أجهزة الكمبيوتر التي تتلقى الإشارات من الفضاء.. هل يكون كلام مصطفى صحيحًا؟ أن يكون هذا جهاز تحضير أرواح ضخمًا متقنًا لا أكثر؟!

هنا سمع النغمة.. النغمة الحزينة الرقيقة.. لم ينظر ليرى.. لقد عرف على الفور.

الكمان الملقى على الأريكة يعزف نفسه بنفسه!!!

* * *

هذا مشهد غريب، لكنه يحوي قدرًا لا بأس به من الرهبة والشجن.. تردد الأوتار يتم من دون قوس.. يمكنك بسهولة أن ترجح أن هذه روح مصطفى غالبًا وقد عادت تمارس هوايتها الأثيرة.

للحظات راح عماد يصغي، وبدأ يشعر بنشوة مع اللحن، ثم أفاق لنفسه! أنت أبله! لا توجد ذرة رومانسية في هذا كله! بل هو شيء مخيف!

مصطفى قد مات.. مات بطريقة مفزعة، وبأعنف شكل ممكن.. لماذا؟ لماذا تقتل الأشباح رجلًا مسالمًا يؤمن بوجودها؟! كان الرجل يعتقد أنه يتصل بكائنات فضائية أولًا ثم قرر أنه في الحقيقة يتصل بأرواح.

هناك موضوع مهم في عالم «الماورائيات» هو التقاط أصوات الأرواح الذائبة في الأثير، ويُسمونه «EVP» أو الضوضاء البيضاء.. اعتقد مصطفى أنه يلتقط هذه الإشارات.. وهذا يعني أنه تحول من عالم فيزيائي مدقق إلى مشعوذ يستحضر الأرواح.. أي ارتداد هذا؟!

لا يعرف كيف ولا متى أمسك بالكمان وهشمه ثم ألقى به في سلة المهملات، لكنه ظل يسمع صوت النغمات من صندوق القمامة.. الأوتار لم تتمزق!



بدأت أجهزة الكمبيوتر تُصدر صفيرًا، وبدأت تلك الموجات ترتسم على شريط الورق وعلى الشاشة.. المزيد من الإشارات...

للحظات راحت «البولترجايست» تمارس عملها، فبدأ النور الكهربي يتلاعب، وراحت الثلاجة تعمل ثم تتوقف دون أن يرتبط هذا بانقطاع الكهرباء، حتى إنه اضطر لنزع القابس حتى لا تحترق.

* * *

في الصباح دق الجرس.. لم يكن قد تناول إفطارًا بعد وكان رأسه يدق كالطبل.

على الباب ظهر ذلك الحرفي ومعه الصبي الذي يعمل معه، وكان يحمل مطرقة كبيرة مما يسمونه «دقماق» وإزميلًا وأشياء عدة.

ـ أريد أن تنزع لي بورسلين هذا الحمَّام.

أشعل الحرفي لفافة تبغ قوية الرائحة، وتأمل البورسلين في حسرة، ثم قال:

ـ إنه بحال ممتازة يا باشا.. تم تركيبه قريبًا جدًّا.. هل تريد تركيب نوع أفضل؟ لن تجد أفضل.. رأيي بصراحة أنه حرام.. أنا أريد أن أعمل، وسوف يسعدني أن أعمل، لكني لا أطيق تدمير شيء جميل.. خاصة أن هذا النوع الأسبـ...

ـ كفى! افعل ما أطلبه.

نظر إليه الحرفي كمن يرى مجنونًا، ثم طلب بعض الشاي وأطلق السباب في وجه الصبي، ثم دخل إلى الحمَّام، وسرعان ما راحت البناية تهتز كلما هوى الدقماق.

بوم.. بوم!!

جلس عماد في الصالة متوترًا ينتظر.. لا بد أنه دخن ألف سيجارة، وفي كل مرَّة ينتظر صرخة الرعب ومناداته.. لم يحدث شيء.. ألف مرَّة فتح الباب ليهدئ جارًا غاضبًا يهدد بطلب الشرطة.. كل شيء سينتهي فورًا فلا تقلقوا، والشرطة لم تعد تأتي لأي سبب على كل حال.. لحسن الحظ لا يعرف الجيران سكان هذه الشقة، ولا يعرفون مصطفى جيدًا.. وفي كل مرَّة يغلق الباب ويتنهد.

نهض إلى جهاز الكمبيوتر وراح يراقب الأرقام، ثم اتجه إلى الطابعة في الركن وراح يراقب الإضافات التي طرأت على الصورة إياها.. بالفعل هذا ليس وجه امرأة على الإطلاق.. الثلث الأعلى كان يوحي بذلك، لكننا هنا نرى شيئًا مختلفًا.. ليست خارطة كذلك.. إنها شيء مشوه يمكن أن تتبين فيه مدرستك الابتدائية، أو نمرًا آسيويًّا يتربص، أو ملامح زوج خالتك.

بوم.. بوم!!

كلما دوت صفارة الإشارات ظهرت بعض النقاط الجديدة على الشاشة، وبدأ صف جديد يظهر في الصورة الغامضة.

هذه ليست محاولة لرسم شيء.. على الأرجح هي إحداثيات فعلًا.

بوم.. بوم!!

نهض إلى الحمَّام متوجسًا، فوجد ألعن كومة من الحجارة والبورسلين المحطم يمكن وصفها.. وكان الصبي يحاول كنس الأرض بمكنسة بالية، بينما بدأت الأرضية الخرسانية تظهر عارية تمامًا بما فيها من تركيبات مواسير.

قال الحرفي وهو يجفف عرقه بمنديل محلاوي متسخ عملاق:

ـ أقترح أن تجد عمالًا يتخلصون من هذا الركام بسرعة يا بك.. إنه ثقيل جدًّا على سقف الشقة تحتنا.

سأله في نفاد صبر:

ـ ألم تجد شيئًا؟

ـ مثل ماذا؟

ـ لا يوجد شيء تحت البورسلين؟

تبادل الحرفي نظرة مع الصبي وحك رأسه ثم قال:

ـ لو كنت تعتقد أن هناك كنزًا فلا شيء كهذا.

بالطبع لم يجسر على سؤاله عن بقايا جثة أو عظام.. لا أحد يسأل عن أمور كهذه. تذكَّر غرفة الدفن الخاصة بريا وسكينة، حيث كانت هناك مقبرة مروعة تحت البلاط، وكانوا يشعلون البخور أربعًا وعشرين ساعة لحجب الرائحة.. العمال الذين قاموا بتكسير البلاط أصيبوا بانهيار عصبي.

من الواضح أنه لا يوجد شيء من هذا القبيل هنا...

أضاف الحرفي وهو يجمع أدواته:

ـ يجب أن تحضر سباكًا يا بك.. صنابير الماء هنا تفتح نفسها وتغلق من دون تفسير، ثم إن الماء ينزل أحمر كالدم في أوقات كثيرة.. لا بد من «فلتر» للتنقية.

وسرعان ما كان قد انصرف مع غلامه، وقد تحولت الشقة المنظمة إلى كابوس.

لا توجد جثث تحت الحمَّام.. نظرية مصطفى خاطئة.. لو كانت هذه شقة مسكونة، فلأسباب أخرى ليس مقتل امرأة من بينها.



مضى عماد يجوب الشقة كنمر يدور في قفصه متوترًا.

يفكر في عمق.. ولتفكيره مزية هي أنه يرتاد أزقة مظلمة لم يصل إليها تفكير مصطفى المستنير الراقي..

فجأة هبط عليه الحل دونما سابق إنذار، ودون تمهيد...

كان في الماضي يقرأ أن الحياة مستحيلة على الكواكب الأخرى - باستثناءات محدودة جدًّا - لأنه لا يوجد قدر كافٍ من الأكسجين والماء، إلخ.. فكان وهو طفل يغتاظ جدًّا.. لماذا لا يكون الله قد خلق كائنات تتنفس النوشادر أو ثاني أكسيد الكبريت وتشرب حمض النتريك؟ بل لماذا لا يكون الله قد خلق كائنات بلا رئات أصلًا؟

قرأ عن اللقاءات الفضائية من النوع الأول والنوع الثاني والنوع الثالث.. كما سمع أحد علماء الفلك يتحدث في قناة تلفزيونية حول احتمالية أن يكون أول لقاء من النوع الثالث نعرفه مع بكتريا أو فيروسات فضائية. صورة الطبق الطائر الهابط الذي يخرج منه رجال بمسدسات ليزر وهوائيات.. هذه الصورة لن تتحقق أبدًا على الأرجح. الخيال الطفولي الذي صدق وجود مخلوق «روزويل» لا يتمتع بأرضية من أي نوع.

لكن ماذا عن سكان فضاء فقدوا ماديتهم تمامًا، تحولوا إلى شكل فيزيائي لا نعرفه، وهذا الشكل هو الذي مكنهم من عبور الفضاء الساحق بهذه البساطة، وعبر مسافات وسرعة لا يتصورها عقل بشري، ولا يتحملها جسد من لحم ودم؟ لماذا لا يكونون أقرب إلى شعاعات أو تيارات مغناطيسية أو صوت؟ لماذا لا يكون الغريب القادم من الفضاء ظاهرة فيزيائية محيرة لا أكثر؟



لم يخطر هذا الحل بذهن مصطفى قَطُّ.

ربما لأنه كان أكثر دقة وأكثر علمية، قبل أن ينقلب تفكيره بالكامل أمام تلك الظواهر «الباراسيكولوجية».. لم يكن خياله جامحًا.

الحقيقة أن الكائنات الفضائية لم تكف لحظة واحدة عن المجيء إلى عالمنا.. ومنذ بدء مشروع «SETI»..

ما يلتقطه اللاسلكي ليس إشارات ترسلها تلك الكائنات.

الحقيقة.. إنه الكائنات نفسها!

* * *

لم يكن عماد مثقفًا أو يملك أي خبرة بالرياضيات أو الفيزياء، وربما لهذا توصل إلى ذلك الاستنتاج الثوري.. كان يفكر خارج الصندوق، وبطريقة خالية من المنطق العلمي، والمثل العربي يقول: «قد تسبق العرجاء». عندما قدَّم «أورسون ويلز» فيلم «المواطن كين»، لم يكن يملك أي خبرة بفن السينما، لكنه كذب على الشركة المنتجة فأعطته صلاحيات عظيمة، والنتيجة هي أنه ابتكر وطوَّر أفكارًا ما كان أي من دارسي السينما السابقين يجرؤ على تجربتها.

لم يكن عماد مثقفًا، لكنه قرأ الكثير من قصص الخيال العلمي الغربية في مراهقته، وبدا له أن ما يفكر فيه معقول جدًّا، ولكن.. لحظة... الكمان!!

بقايا الكمان المهشمة في سلة المهملات.. هل تخيل أنه رأى بداخل الكمان قصاصة ورق؟ ربما هي عنوان من قام بالإصلاح أو الصيانة أو أي شيء آخر، لكن ربما...

هرع إلى حيث كانت سلة المهملات، وتربع على الأرض، وراح

يبحث.. اضطر لأن يقلبها على الأرض.. كان الكمان المهشم خاليًا.. لا يوجد شيء فيه.. لقد تخيل.. علب طعام وعلب لبن وعلب تبغ وفواتير ممزقة، لكنه وجد ورقة مكرمشة.. فتحها في شيء من التوجس، فوجد عبارة واحدة بخط عصبي رديء:

«هم.. الإشارات».

شعر بقشعريرة.. هذا هو ما حدث فعلًا.. لقد وجد مصطفى الحقيقة وكتبها في هذه الوريقة، ثم تخلص منها وكتب كلامه السابق عن الأشباح.. ما التفسير؟ ثمة تفسيران:

- أن رأيه تغير فعلًا وآمن بوجود أشباح.. ردَّة العالم العبقري إلى عالم الماورائيات.
- أنه كان يكتب تلك الكلمات عن الأشباح في الملف لهم.. لتلك الكائنات.. يعرف أنهم يراقبونه ويقرأون ما يدونه، وهو يريد التظاهر بأنه لا يعرف هذا القدر كله.. لقد كان خائفًا.. مثل من تراقبه أجهزة الأمن، فيدون العبارات الوطنية طيلة اليوم وهو وحده في غرفته، محاولًا إثبات حسن نيته.. كتب هذه الكلمات وترك المختبر وتوارى في داره، لكنهم وجدوه وهشموا عنقه أو جعلوه يهشمه على الأرجح.

لماذا مات مصطفى؟ مَن قتله؟

يمكن بشيء من الخيال أن نقول إنهم قتلوه لأنه عرف أكثر مما يجب.. هو الوحيد الذي اقترب من الحقيقة إلى هذا الحد.

غزو الكائنات القادمة من الفضاء لن يحدث.. لأنه ببساطة حدث فعلًا، وهو مستمر طيلة هذه اللحظات...



والرسم الغريب؟

قلنا إن هذا ليس وجه امرأة على الإطلاق.. على الأرجح هذه إحداثيات.. الكائنات تحدد أماكن هبوطها.

يجب أن يفعل شيئًا.

أول ما فعله عماد أنه انتزع القابس لتصمت كل الأجهزة، ويسود الظلام للمرَّة الأولى منذ فترة طويلة، ثم اتجه إلى المطبخ فجلب علبة ثقاب وزجاجة من الكحول الإيثيلي وجدها هناك.. كان مصطفى يحب مذاق القهوة التي تُعد على سبرتاية.. سكب عماد الكثير من الكحول على الأجهزة ثم أشعل عود الثقاب وألقاه.

لقد أغلقت هذه البوابة.. البوابة التي تجلب لنا الكائنات من أبعاد أخرى، لكن هناك آلاف البوابات في العالم كله، آلاف الحمقى ساهرون ضمن مشروع «SETI» يظنون أنهم يلتقطون إشارات غامضة، بينما هم في الواقع يفتحون بوابات الاحتلال.. إنهم يلتقطون الكائنات نفسها!

كليك!

هذا الصوت.. لا يمكن أن يكون إلا...

نعم.. التخمين صحيح.. باب الشقة مغلق ولا يمكن فتحه، كأن لسان القفل قد برز.. إنه حبيس الشقة.. ولاحظ في رعب أن شرشف المكتب قد احترق، فبدأت شاشة الكمبيوتر تتفحم.. الستارة تحترق.. الدخان يملأ المكان.. هذا حريق.. حريق يتشعب ويتغول وهو حبيس الشقة!

هذا منطقي.. هذه الكائنات في كل مكان.. كان هناك شاهد خطير يعرف كل شيء، وقد تم تدميره في شقته.. الآن هناك شاهد خطر آخر.. سوف يجدونه محترقًا.. وبالطبع لن يعمل جهاز الهاتف المحمول، ولن تأتي المطافئ.. هرع إلى الحمَّام بحثًا عن ماء، فوجد أجمل منظر رآه في حياته: الحرفي الذي قام بتحطيم الحمَّام نسي «الأجنة» على الأرض.. التقطها بسرعة وبحث عن شيء ثقيل يدق به.. لا يوجد.. حمل «الأجنة» وهرع إلى باب الشقة.. سوف أحطمك بأي ثمن...

ضربات مجنونة للخشب.. كراش! الدخان.. السعال.. ألسنة اللهب تزحف إلى البساط.. كراش! ثغرة تتكون.. ضربات...

في النهاية كان غارقًا في العرق، والدم يسيل من قبضتيه، لكنه تمكَّن من صنع فجوة في خشب الباب.. فجوة تسمح بالخروج.

خارج الشقة وجد بعض الجيران بثياب النوم يرقبون المشهد مندهشين، لكنه لم يكلمهم، وراح يثب الدرجات كالملسوع.. فليطلبوا المطافئ هم.

السيارة الواقفة تبدو كمرفأ آمن.. جلس خلف المقود وأدار المحرك.. إنه يعمل.. الحمد لله.. قواعد قصص الرعب غير سارية. تراجع بالسيارة قليلًا، ثم أدرك أن هناك شيئًا خطأ: هو لم يفتح جهاز المذياع ولم يشغل المساحات! ثم فوجىء بـ«الفتيس» يتحرك دون أن يحركه!!

إنهم هنا!! إنهم في كل مكان!!



يمكنه أن يذهب إلى الشرطة ويحكي قصته، لكن من يصدقه؟ المستشفيات ملأى بالمرضى الذين يقولون ما يقوله.. سيناريو الجنون جاهز.

هنا سؤال مهم: هل توجد أشباح في عالمنا حقًّا؟ تلك الأشياء التي نراها في أفلام الرعب، وتُحرِّك قطع الأثاث، وتُحدث صريرًا من الأبواب، هل هي أشباح من عالم آخر حقًّا أم كائنات فضائية جاءت من بُعد آخر؟

لا مفر...

لقد تم الغزو.. لقد ضعنا.. وهو أول الضائعين.. ثانيهم إذا أردنا الدقة.

أدار مقود السيارة ليرسم حرف «U» ثم ينطلق بسرعة جنونية في الاتجاه العكسي على الطريق السريع.. السيارات القادمة ترى المشهد المهول وتتفاداه في آخر لحظة، والكل يتساءل: هل جُن؟! هل هي نوبة قلبية؟! الحقيقة أن هذا رجل بلغ به الذعر درجة أن يبحث عن مفر، حتى لو كان تحت الأرض أو في السماء.. هذا رجل يريد أن يموت!

خذ الحذر لو مشيت على الطريق السريع ورأيت سيارة «نيسان» مسرعة قادمة نحوك.. كُن متيقظًا.. لا تمت معه...

لنترك عماد الآن، ففرصته في البقاء حيًّا «صفر».. دعنا نعتنِ بأنفسنا.

أنت لست وحدك.. تذكَّر هذا.. بالواقع أنت في عالم مزدحم ولا يوجد شيء اسمه «خلوة».. عندما يفتح التلفزيون نفسه أو يُغير

القناة، وعندما يتلف ملف كمبيوتر بلا سبب، وعندما ينغلق باب بلا ريح... فأنت تعرف السبب.

احترسي يا آنستي عندما تأخذين حمَّامًا، فلربما صار جسدك فقرة تسلية في برنامج يراه الملايين في مجرة أخرى.

خذ الحذر.. والأهم ألَّا تحكي هذه القصة لطرف ثالث، حتى لا تصير من البؤساء الذين يعرفون أكثر مما يجب!





هشام يخفي سرًّا

«السر الذي يخفيه هشام يُحيرني.. فهشام يبدو لي كأرض منبسطة سهلة.. عيناه صادقتان، لكنهما خائفتان.. في أعماق عينيه يمكنني رؤية النظرة تقول: «لا تقتربي أكثر من اللازم من فضلك فلديَّ سر مخيف!».

ما هو السر المخيف؟ فراسة المرأة تتوقف هنا.. مهما شببتِ على أطراف أصابع قدميك لتختلسي نظرة من فوق السور، فهناك بقعة عمياء لا ترين بعدها».



السر الذي يخفيه هشام يحيرني حقًّا.

تسألني كيف عرفت أن لديه سرًّا، فأقول لك إنني امرأة.. أملك ذلك التكوين الوجداني والشعوري والعقلي الذي يزدهر في وجود هرمونات الأنوثة، كأنك تسقي أيكة بالسماد.. ثمة جزء في تكوين الأنثى يقدر على قراءة الأفكار أو الحدس أو الاستبصار.. أحلامنا كنساء تتحقق غالبًا.. مخاوفنا تصدق على الأرجح.

السر الذي يخفيه هشام يُحيرني.. فهشام يبدو لي كأرض منبسطة سهلة.. عيناه صادقتان، لكنهما خائفتان.. في أعماق عينيه يمكنني رؤية النظرة تقول: «لا تقتربي أكثر من اللازم من فضلك فلديَّ سر مخيف!».

ما هو السر المخيف؟ فراسة المرأة تتوقف هنا.. مهما شببتِ على أطراف أصابع قدميك لتختلسي نظرة من فوق السور، فهناك بقعة عمياء لا ترين بعدها.. ولكن.. أ... دعني أقدم نفسي أولًا.

مرحبًا بك.. هات يدك أصافحها.



اسمي صفاء.. في الثامنة والعشرين من العمر.. أعرف من نظراتك، ومن ابتلاع ريقك، أنني جميلة.. الطريقة التي يطرق بها الرجال عندما يكلمونني أو يحاولون النظر في اتجاه آخر.. أعرف هذه اللحظات عندما يؤلمهم جمالي ويحرمهم الراحة النفسية.. بالتأكيد يُفضِّل أحدهم ألَّا يكلمني أو ينظر في عينيَّ، بل سيكون أكثر راحة لو جلس يتأملني من بعيد.. أنا محجبة، لكني أعرف كيف يضيف هذا الحجاب الأنيق حسنًا إلى حسني.. يخفي العيوب ويبرز المزايا ويضع لمسة غموض محببة تعد من يظفر بي بكشف السر.

أنا سكرتيرة في شركة استشارات هندسية، وأتقاضى راتبًا لا بأس به، وعندي سيارة لا بأس بها أبدًا.. يمكن القول إنني محظوظة، خاصة أن أبي وأمي بصحة طيبة، ولي ثلاث أخوات لكنهن أقل جمالًا وسنًّا.

كانت أمواج المعجبين تتكسر عند صخرتي وتتبعثر.. كثيرون نعم، لكنهم يفقدون شجاعتهم بسرعة كأنهم الذباب.. وقد قررت أن من حقي أن أختار لنفسي الملك.. لن أضيع وقتي مع عشاق مفلسين خائفين، بل يجب أن أكثف جهودي لنيل ذلك المهندس الشاب الناجح هشام. هو وسيم جدًّا، حتى ليبدو كعارضي الأزياء، وهو ثري جدًّا ومن أسرة غنية أصلًا.. دعك من أنه خجول فعلًا وتستطيع أي فتاة أن تظفر به بشيء من الجهد.. الحقيقة أنه أجمل من أن يكون حقيقيًّا.. لكنه حقيقي وليكونن لي.

وقفت أمام مرآة غرفة النوم، وأعدت إصلاح وضع الحجاب.. هذا جمال لا يحق لكائن أرضي أن يظفر به.. أنا مغرورة؟ ربما، لكنك لم تَرَ وجهي.. لربما لو رأيته لقلت إنني أبخس نفسي حقها.

قلت لنفسي العبارة التي أكررها كل يوم: «سوف أظفر بك يا هشام.. أقسم بالله أنني سأظفر بك».

هذه لعبة سهلة ومسلية جدًّا.. تستطيع أي فتاة جميلة أن تظفر بالرجل الذي تريده إذا كان عديم الخبرة مثل هشام.

كان ينظر إليَّ بعينين خرساوين، ورأيت أكثر من مرَّة عينيه تتحسسان تقاطيع وجهي الساحرة أو منحنيات ثوبي.. كان يريدني بقوة، لكن عليه أن يعرف أن الوصول إلى هذا الكنز يمر بطريق واحد: لا بد من مقابلة مع أبي، ولا بد من خاتم ذهبي، ولا بد من رحلة مرهقة لانتقاء الأثاث وديكورات الشقة.

أنا آسفة يا هشام.. لا أريد أن أقيد حريتك، لكن لا أحد يستحقني سواك، ولهذا لا أملك الخيار للأسف.

* * *

لم يكن أحد يعرف الكثير عنه، فهو من الطراز الصموت الذي لا يبوح بأسراره بسهولة، ولعل هذا يمنحه طابعًا ساحرًا. دع أي واحد من هؤلاء الأوغاد يجلس معك، ولسوف يحدثك عن التهاب إصبع قدمه الكبيرة، وعن زيارة خالته مع أطفالها الخمسة، وعن أمه التي وضعت الملح في كوب الشاي لأن مرض السكري أتعب شبكية عينيها... مع هشام مستحيل أن يحدث شيء سوقي كهذا.

صديقه الأقرب يُدعى مصطفى.. مهندس صغير السن ثرثار.. وقد جلس في المكتب جواري يشرب الشاي ولا يكف عن الكلام لحظة.. فقط ضغطت على الزناد فتكلم.



قال لي إن هشام يسكن في مدينة نصر مع أمه.. ليس لديه أب ولا إخوة.. غير متزوج.

كدت أركله غيظًا.. غير متزوج! يا لك من عبقري!! هذه الحقيقة لم تفارقني لحظة واحدة منذ عام ونصف.. غير متزوج.. هناك ثمرة لامعة شهية معلقة من غصن الشجرة تنتظر الفتاة المحظوظة التي تلتقطها.. فتاة مثل صفاء.. مثلي.

قال لي إن هشام خجول ومتحفظ، ثم إنه يرفض كل فرص السفر إلى الخارج التي أتيحت له، وحتى عندما قُدمت إليه بعض المنح الدراسية فقد رفضها في إصرار.

ـ هل هو وطني إلى هذا الحد؟

ـ ما من أحد وطني إلى هذا الحد.. إما أنه يهاب التجارب الجديدة، أو هو يكره ترك والدته وحيدة.

كنت أنا قد رسمت الصورة كاملة: فيلًا في التجمع الخامس أو مدينة الشروق.. أطفالنا يلعبون في الحديقة.. أمه نضعها في غرفة ما ونطعمها إلى أن تموت.. لن يطول الأمر.

فقط هناك سؤال واحد...

هشام لديه سر في عينيه.. يومًا ما سأعرف هذا السر.

* * *

كنت أنسج خيوط العنكبوت حول هشام في حذر، وأدنو منه وأبتعد.. أتظاهر يومًا باللطف، ثم تصير معاملتي متحفظة فاترة، فلا يفهم السبب.. كان ينهار كسمكة تجذب شص صنارة.

عرفت أنه انهار عندما كنت وحدي في غرفة التصوير أطبع بعض

المستندات.. هنا فوجئت به يقف خلفي.. استدرت في شيء من الرعب المصطنع.. فرأيت وجهه محتقنًا والعرق يغمر جبينه.. وفجأة لم أدرِ كيف أمسك بكفي وانهالت قبلاته على أطراف أناملي، وهو يردد بلا توقف:

ـ أنا أحبك يا صفاء.. أحبك حقًّا.. أحبك بجنون.. لا أقدر على...

كانت الكلمات تتدافع على لسانه وتذيب بعضها.. هذا البائس سيصاب بنوبة قلبية فورًا.. مسكين.

بالطبع كان رد فعلي متوقعًا ومبرمجًا:

ـ باشمهندس هشام.. أرجوك! من تظنني؟

كنت أسيطر على الموقف بالكامل.. هو خجول عديم الخبرة ولن يتمادى، لكن كل أنثى تعرف كيف تقنع الرجل أنه خطر مرعب وأنها ضحية.. هذا يروق لهؤلاء الحمقى جدًّا. كما توقعت، تراجع وأخرج المنديل يجفف به عرقه. وسيم حقًّا بالقميص السماوي وربطة العنق الزرقاء والقلم يطل من جيب القميص، وكان في حال سيئة من الخجل والإحساس بأنه تمادى جدًّا.

هنا دخلت هدى الغرفة حاملة بعض الأوراق.. هدى زميلة عمل لعينة تشبه خنفسة «السيكادا»، وأنا أمقتها عامة، ولا أطيق رائحة عطرها الكريهة، لكني شعرت بامتنان لها.. نظرة الشك والحيرة التي بدت على وجهها كانت رائعة.. أنت أفسدت سمعتي يا باشمهندس وعليك أن تعتذر لي بطريقة عملية.. كأن تقابل أبي مثلًا!

عند الظهر قدَّم لي الكثير من الاعتذار، وقال مرارًا إنه فقد التحكم في نفسه.. قال إنني ساحرة جدًّا، ولم يُخلق الرجل الذي...



ـ انتهى الموضوع لو سمحت!

غادرت المكان وأنا عازمة على أن أُظهر الغضب والشعور بالإهانة لفترة. أنتم الرجال تعتقدون أن أي سكرتيرة تعمل معكم جارية متاحة في أي وقت. أما ما حدث بعد هذا من وفاة هدى المريعة فقصة أخرى ليس مجالها هنا!

* * *

كما توقعت.

السيارة تقترب.. تدنو مني.. تتحرك بنفس سرعتي.. أنظر إلى السائق فأرى وجه هشام المحتقن. في كل مرّة يحطم جدارًا من جدران خجله، ثم يندم جدًّا بعدها. نظرت إليه بتلك النظرة التي صار يعرف معناها.

قلت له في حزم وقد شددت قامتي:

ـ باشمهندس هشام! واضح أنك تلقيت إشارات خطأ بصددي، أو لربما أنا ضحية وغد حاول تشويه سُمعتي!

أخرج رأسه من النافذة الجانبية، وقال بنفس طريقة الصبي المذنب إياها:

ـ أنتِ من تسيئين فهمي.. لو سمحتِ لي بأن أوصلك فلسوف أحكي كل شيء في الطريق.

ـ أنت تعرف أن سيارتي في الشارع المجاور.

طبعًا تمنعت قليلًا.. لو كنت تظن أنني من الفتيات اللاتي يركبن سيارة شاب لمجرد أنه طلب ذلك ثلاث مرّات فأنت مخطئ.. لا بد من أربع مرّات.

فتحت الباب الجانبي مع المرَّة الرابعة، وجلست وشعرت بنعومة البطانة وبرد التكييف.. سيارته أغلى من سيارتي بمائة ألف أو أكثر.. رائحة عطرية مدوخة جميلة.

ـ طلباتك؟

قلتها في نفاد صبر، فارتبك أكثر.. ثم وجد أنه يجب أن يكون سريعًا حاسمًا لأنني نافدة الصبر كالإعصار.. أريد مقابلة أبيك.. البيت المشترك.. حياتنا معًا.. كل شيء سيكون له طعم معك، إلخ.. هكذا يردد بالضبط الكلمات التي أردت أن يقولها.

حدث شيء غريب بينما هو يصغي إلى كلامي.. لقد تقلص وجهه في ألم، وانثنى على نفسه لتصدم ذقنه إطار السيارة.. كان يعاني ألمًا مريعًا، وراح يتحسس عظمة القص كأنه يحاول تحطيمها.

ـ هل... هل أنت بخير؟

مرت لحظات، ثم راح يجفف العرق عن جبينه، وبدأ لونه الشاحب يكتسي بلون الدم، ثم قال لاهثًا:

ـ لا شيء.. آلام المرارة.. يجب أن... جراحة.

مرارة خلف عظمة القص؟! حتى أنا أعرف جيدًا أنها تحت حافة الضلوع اليمنى، وتُسبب ألمًا في الكتف على نفس الجهة!

هشام يخفي سرًّا.. لا شك في هذا.

في النهاية قلت له إنه يجب أن يدخل البيت من بابه.. وبينما هو يدور في الشوارع ليقودني إلى حيث تنتظر سيارتي.. ترجلت من السيارة فقط ليطلب مني رقم هاتف أبي.. لقد نجحت.. أدرت محرك سيارتي وأنا أدرك أنني انتصرت.. سوف تسكرني لذة الظفر هذه الليلة.

الموعد كان في بيتنا في الثامنة مساء الخميس.. اشترت ليلى الجاتوه السواريه، بينما اشترت مي المياه الغازية، واشترت سامية المانجو الذي سيُقدَّم كعصير.. أبي ارتدى بذلته الرمادية وارتدت أمي ثوبها الأسود الأنيق، وعطرت رائحة الشقة، وقمنا بتمشيط فراء القط.

هكذا جاء هشام مع أمه، وكان وسيمًا كالعادة.. أدركت بسهولة أن أمه سوف تموت بسرعة.. هذا التنفس اللاهث واحتقان الأوردة.. سوف ترحل بسرعة وتترك جوهرتها لي.. شكرًا لكِ يا «حاجَّة».. سوف أتولى القيادة من هنا.. يمكنكِ أن تستريحي في فراشك أو في القبر لا مشكلة.

في منتصف الجلسة تقلص وجه هشام، وبدا عليه ألم شديد.. توترت الأم بدورها، وسألته همسًا عن شيء ما، فهز رأسه، ثم طلب أن نسمح له بدخول الحمَّام.. كان هذا طلبًا عسيرًا لأن أمي نسقت ديكورات المكان كما يحدث في المسرح.. خشبة المسرح أنيقة معدة بعناية، بينما الكواليس قذرة مليئة بالخيش والغبار والفئران.

قال هشام وهو يضغط على أسنانه:

ـ معذرة! آلام مرارة!

نهضت أمي مسرعة ومعها ليلى.. المطلوب عملية تنظيف سريعة للحمَّام والممر المؤدي له، ثم تعود بوجه ممتقع لتسمح له بالذهاب إلى الحمَّام.. صوت السيفون.. صوت المياه في حوض الوجه.. عندما عاد كان شاحبًا لكنه في حالة أفضل.

قلت لنفسي إن حساسيته شديدة لذا تقلصت أمعاؤه وكان لا بد أن يدخل الحمَّام.. هذه تجربة غير مسبوقة بالنسبة له. لقد كان نصري

كاملًا، وقَبِل كل شروط أبي.. حتى إن أمي راحت تنظر إليَّ بنظرة خفية معناها: «ماذا ـ فعلتِ ـ لتسحريه ـ يا شيطانة؟»".

أنا سأتزوج خلال أشهر.. سأفوز بأوسم وأغنى مهندس في المكتب.. شكرًا لكِ يا أم هشام على هديتكِ.

* * *

يجب أن أحكي لك قصة وفاة هدى.

أنا لا أحب هدى ولا أطيقها.. رائحة عطرها تخنقني، ولها ملامح غريبة لا تطيق النظر إليها.. تقيم هدى في شقة رخيصة مع أمها وأخيها، وهي غير متزوجة.. لا يوجد أحمق يتزوج هذه على الأرجح.

قالت التحقيقات فيما بعد إنها تناولت عشاءها مع الأسرة، ثم أعلنت أنها ستأخذ حمَّامًا قبل النوم. قالت أمها إن هذا سوف يؤذيها.. لا أحد يستحم بعد الطعام مباشرة، والحقيقة أنها كانت دقيقة جدًّا.. لم تتصور أن يصل الأذى إلى درجة أن تموت ابنتها.

هنا لغز لا بأس به.. الفتاة دخلت الحمَّام في العاشرة مساء، والحمَّام مغلق، ولا توجد به سوى نافذة صغيرة أقرب لفتحة تهوية.. أي أنه لو أراد طفل في السادسة أن يجتازها فلسوف يفشل.. لا يوجد سخان يعمل بالغاز ليكرر سيناريو التسرب إياه.. لا يوجد تفسير.

بعد ساعة تأخرت أكثر من اللازم، وكان أخوها بحاجة إلى دخول الحمَّام فراح يدق الباب.. لا يوجد صوت دُش.. تبادل نظرة قلقة مع الأم، ثم بعد لحظات لوى المقبض بعنف وهو يضرب الباب بكتفه.. كانت هناك على الأرض ثانيةً رُكبتيها، وقد أراحت رأسها على حافة المغطس، وكان ينزف بغزارة. كانت بثيابها، لم تجد الوقت الكافي

لتتعرى.. وقد أدرك من النظرة الأولى أنه لم تعد ثمة جدوى.. لقد فرغت الحياة منها.

عندما جاء رجال الشرطة قاموا بفحص الحمَّام، ولم يكن هناك شيء غريب سوى أن النافذة الصغيرة مفتوحة، وهذا شيء غريب بالنسبة لفتاة تنوي الاستحمام، لكن النافذة لا تسمح بمرور شيء خطر.. بعد تفكير استقر الرأي على أن الفتاة انزلقت فاصطدم رأسها بحافة المغطس.. هذا سيناريو شهير جدًّا خاصة مع المسنين.

يذكر الأخ أن عنق الفتاة مهشم.. لا يعرف تفسير ذلك.. لقد سقطت على جبهتها، لكن ما دور عنقها في هذه القصة؟!

هكذا عرفنا الخبر، وكان من الصعب عليَّ أن أصدق أن هذه هي هدى التي اقتحمت عليَّ خلوتي مع هشام منذ يومين.. اعتدنا أن نحسب الأشخاص الذين نكرههم أبديين لا يزولون أبدًا.. غياب أحدهم خبر سار، لكنه نادر الحدوث.

لماذا أحكي قصة وفاة هدى؟

لأنها شبيهة بقصة وفاة صفوت الأمير. صفوت مالك أرض في مجتمع عمراني جديد، وقد كلَّف مكتبنا بعمل رسم هندسي لفيلّا يريد بناءها هناك.. صفوت يبدو كالمُلاك الأثرياء بشكل كاريكاتوري.. بدين.. كرش عملاق.. رضا واعتداد بالنفس.. عوينات سوداء.. فظاظة عند اللزوم.

لقد طرأ خلاف عنيف بينه وبين هشام، ودخل إلى مدير المكتب وتشاجر واتهمنا بأننا لا نفقه شيئًا، وأن عليه أن يجد مكتبًا محترمًا، ورفض أن يشرب القهوة التي قدمها له المدير، وشتم المهندس



الأحمق هشام، وطلب أن يطرده المدير لو كان يريد الاحتفاظ بالعملاء حقًّا.. وقد اشتطت غضبًا لدرجة أنني فكرت في انتزاع قلبه بأظفاري.. لا تشتم زوجي القادم يا ابن الـ...

غادر المكان وهو يُطلق السباب.. أما ما حدث بعد هذا فأنت تعرفه.. الجثة الممزقة في المصعد، والرعب على الوجه، و... ماذا؟ هل عليَّ أن أحكي هذه التفاصيل أيضًا؟

ليكن.. سأحكي لك، لكن أرجوك سأكون مختصرة جدًّا لأن هذه التفاصيل مملة.. موضوعنا الوحيد اليوم هو أنا، وهذه الأمور الفرعية تضعف الحبكة بلا شك.

حدث هذا بعد يوم من تلك المشادة.. لقد عاد صفوت الأمير إلى مكتبنا ليزيد من متاعب هشام.

لنقل إن المصعد توقف بين دورين في البناية التي يوجد فيها مكتبنا الهندسي، وقد استعانوا برجل الأمن والحارس اللذين استطاعا إعادة المصعد إلى الحياة.. عندما انفتح المصعد في الطابق الثالث رأى الواقفون مشهدًا جللًا: كان صفوت الأمير راقدًا على أرضية المصعد وقد تمزق عنقه وسالت حوله بحيرة من دم لم يتجلط بعد.. الرعب على الوجه، تراه في الفم الصارخ والعينين الجاحظتين.. لا تحتاج إلى طبيب كي يخبرك أن هذا الرجل لن يتنفس ثانية.

عندما نزلنا على الضجيج إلى الطابق الثالث، كانت هناك محفة كئيبة الشكل، وعدد من الرجال الضخام الذين يدخنون بكثافة، ويمكنك أن تميز وكيل نيابة وضابطًا.

دنوت من رجل أمن وسألته عما حدث، فقال لي إن هناك جثة،



جثة ممزقة، ولا توجد طريقة لدخول المصعد.. هناك فتحة تهوية في السقف لكنها صغيرة جدًّا.

إذن كيف حدث ما حدث؟ لا أحد يعرف. إن فهم الطريقة التي يمكن أن يتمزق بها رجل داخل مصعد تلقائيًّا هو أمر يتجاوز ذكائي، لكن منذ متى يمكننا حل ألغاز الكون كلها؟

فقط نظرت إلى المحفة وهي تبتعد، وخطر لي أن هشام محظوظ بالتأكيد.. الخلاص من شخص كهذا أمر يبعث البهجة في النفس. وفي عصبية طوحت يدي في الهواء محاولة طرد كل دخان التبغ المحيط بي.. لسبب ما يعتقد الرجال أن دخان التبغ والجدية مترادفان.

وفيما بعد، عندما عدت إلى مكتبي رأيت هشام يخرج من مكتبه، ويبدو أنه لم يسمع هذه الضوضاء، فرفع حاجبيه متسائلًا:

ـ هل ثمة خطب ما؟

قلت في لامبالاة:

ـ لا شيء. أحدهم نال جزاءه لا أكثر.

هز رأسه في غباء وعاد إلى مكتبه. لا تضيع وقتك ولا انتباهك يا عزيزي.. أريدك أن تُركِّز في زيجتنا القادمة.

* * *

الرومانسية شيء جميل في حياة الفتاة، خاصة عندما تكون محرومة منها.. من الغريب أن أجمل الفتيات قد يكن وحيدات جدًّا.. هن محاطات بالمعجبين طيلة الوقت، لكن الفتاة منهن تدرك من عيون المعجبين الجائعة أن الحب آخر ما يريدون.. لا أحد منهم ـ الأغبياء ـ يملك البال الرائق لأن يشم زهرة ثم يناولها لي كي أشمها.

أنا أفهم شعور الجميلات بالوحدة، فلا أحد يعاملهن ككائنات بشرية، بل كأشياء تؤكل.. قرأت قصة «مارلين مونرو» التي كان الأمراء يصطرعون من أجل الفوز بها، لكنها اختارت ذلك الكاتب الأصلع المسن «آرثر ميلر»، لأنه منحها حنانًا حقيقيًّا، ولو صح ما قرأت فقد كانت سعيدة بحق، ولم تنتحر كما قيل، ولكنَّ المخابرات المركزية قتلتها بحقنة سامة في كعب رجلها.

الرومانسية.. ما أروعها!

لذا كانت تروق لي أشياء بسيطة جدًّا.

وجدت زهرة على وسادتي أمس.. زهرة حمراء جميلة.. لحسن الحظ لم ترها أي واحدة من الخبيثات: ليلى ومي وسامية. كانت عطرة الرائحة بحق.. وقد تساءلت عن كيفية وصولها إلى وسادتي.. لا أعرف. هشام كان عندنا اليوم وتناول الغداء، فهل وجد لديه من الشجاعة ما يسمح له بأن يتسلل إلى مخدعي ليضع الزهرة؟ وكيف خمن وسادتي؟ الاحتمال الأقرب هو أنه متآمر مع واحدة من الخبيثات الثلاث.. كما كانت تفعل القهرمانات في مضاجع الأميرات.

منذ يومين وجدت في حقيبتي صفحة ممزقة من ديوان شعري رقيق.. أعتقد أنه ديوان كامل الشناوي لأني ميزت بعض المقاطع الغنائية.. كيف استطاع هشام أن يصل إلى حقيبتي؟ سر آخر!

عندما أسأله في خبث ينظر إليَّ بعينيه الصافيتين الساحرتين، وفيهما عدم فهم صادق.. أعرف هذه النظرة الخائفة، وأحبها كثيرًا. كان ينكر بصدق، فأقرر أن أسكت في النهاية، وأقول لنفسي إن هشام يخفي سرًّا بالتأكيد.

الأمور تمضي في سلاسة ونعومة نحو يوم الزواج، لذا توقعت مشكلة ما.. هذا شيء حتمي.

جاء الشيء الحتمي في ذلك اليوم الذي عدنا فيه إلى البيت في ساعة متأخرة، وكنت أتأبط ذراعه وضحكاتي تدوي على الدرج كصهيل الخيل.. كانت سهرة رائعة بالفعل.

انفتح باب الشقة لأرى أبي وأمي يقفان في الصالة، ونظراتهما تكفي لقتل فيل.. كان وجه أبي محتقنًا، وأمي تنظر إليه في قلق، ثم دارت المحادثة المعهودة التي يعرفها كل من يدمن التمثيليات العربية:

«هل تعرفين كم الساعة يا ست هانم؟».. «لكنه خطيبي يا بابا!».. «خطيبكِ لا يعني أنكما متزوجان».. «لكننا لم...».. «قولي هذا للجيران الذين يرونكما كل يوم في ساعة كهذه».. «عمِّي.. أنا...».. «أنا أمنعك من الخروج معها إلى أن تنتهي إعدادات الشقة ونكتب الكتاب».. «بابا أنا لستُ صغيرة!».. «بل أنتِ طفلة وبوسعي أن أهشم رأسكِ!».. «دعني أرَ كيف ستهشم رأسي؟».. «هكذا...».. «عمي.. هل تهوي على وجهها بالشبشب أمامي؟ أنا لن أسمح!».. «وبأي حق تسمح أو لا تسمح؟ هذه ابنتي! اخرج حالًا!».. بكاء.. صراخ.. هستيريا.. الباب ينغلق.. وجوه أخواتي الممتقعة.

«فريد! أنت أهنته إهانة بالغة ولن يعود».. «فليذهب في ستين داهية إلى حيث ألقت! ابن الـ... يتصرف كأنها زوجته وفي عصمته.. سوف أعرف كيف أبرهن لكم على أنني رجل البيت»، إلخ.

بصراحة كنت في حالة بالغة من الاشمئزاز والقرف.. كل هذا

مبتذل وسوقي جدًّا.. لقد غادر هشام الشقة مغضبًا.. يمكنني أن أرى وجهه الأحمر المحتقن ـ ولربما دمعة متجمدة في عينيه ـ وهو يركض هابطًا في الدرج.

أنت أفسدت كل شيء يا أبي.. ليس هذا أنسب وقت للعب ألعاب الأب الحازم هذه!

سوف تضيع عليَّ أفضل عريس يمكن أن يتاح لي خلال خمسة أعوام وفي دائرة نصف قطرها خمسون كيلومترًا.

هرعت إلى حجرتي، وركلت حذائي وأنا أسب وألعن.. لماذا لا يطبقون نظام «أفلاطون»، أو حلم الدول الشيوعية: أن تأخذ الدولة الأطفال وتربيهم فلا يعرفون لهم أهلًا؟

كادت أختي سامية تقول شيئًا فنهرتها في عصبية، وارتميت على الوسادة، ورحت في نوم عميق.

فقط صحوت في الثالثة صباحًا على صوت الصراخ.. هرعت واثبة ومعي الفتيات الثلاث نحو غرفة أبي حيث كان الصراخ.. كان هناك على الفراش نائمًا على ظهره، وقد ازرق لونه تمامًا، وكانت عيناه شاخصتين، بينما أمي تولول وتلطم خديها.. يبدو أنها نامت ثم نهضت لبعض حاجتها فرأت المشهد...

لقد مات وهي نائمة، ولربما وهو نائم كذلك.

لم يكن أبي مريضًا بالقلب! لم يكن مريضًا بأي شيء!

سمعت أمي تصيح في غلٍّ:

ـ أنتِ قتلتِه بقلة أدبك! لم يتحمَّل المشادة!

لربما كان هذا صحيحًا، لكني كذلك أرى الكدمات على أنفه

وحول فمه، ورأى الوسادة الساقطة جواره.. لست طبيبة شرعية، لكن هناك من خنق أبي بوسادة وكتم بها أنفاسه.. لا شك في هذا.

مَن فعلها؟ وكيف؟

ثم جال خاطر آخر في ذهني: لماذا يموت كل من يضايقني أو يستفزني؟ هناك لعنة ما تحيط بي.. لقد صرت شبه واثقة من ذلك!

* * *

هكذا ابتعد حلم الزواج جدًّا.

هناك فترة حداد ينبغي أن تمر، وهناك ليالٍ كئيبة، وتلفزيون لا يُفتح، وثياب سود، إلخ. نحن أسرة مصرية، ويجب أن نحزن جدًّا. قبل موت فرد من الأسرة يكون البيت كفتاة عذراء نضرة، ثم يأتي الموت فتفقد الفتاة عذريتها ويتجعد وجهها بالخبرة المروعة إلى الأبد.

كان عليَّ كذلك أن أعتاد نظرة الاتهام من أمي وأخواتي باعتباري «قتلت الرجل»، وهو اتهام لست على استعداد للنظر إليه بأي جدية.. كل واحد منا يحمل في خلاياه تاريخ الإعدام وطريقته، وليس ذنبي أن كانت ساعة إعدام أبي هي لدى عودتي من الخارج مع هشام.. لم يكن الاستفزاز قويًّا لدرجة القتل، بل إن مَن أُهين بشراسة هو أنا!

لم تكن تلك هي المشكلة.

كانت المشكلة هي خوفي وتوجسي من نفسي.. الأمر قد تجاوز عشوائية الحظ.. لا يمكن أن يوجد كل هذا القدر من المصادفات في مكان واحد.. سمعت عن أشخاص لهم نظرة قادرة على فلق الحجر، ورأيت التأثير العجيب للحسد، لكني لم أرَ قطُّ من يكرهك لدرجة أن تموت.. لهذا وُلد تعبير «لو أن النظرات تقتل» على نفس وزن

«لو أن الأفيال تطير»، لأن النظرات ببساطة لا تقتل.. دعك من أنني لم أكره أبي قَطُّ.. الخلاف والاحتداد لا يعنيان الكراهية.. ولا شك أن موقفي وحياتي من دونه صارا أعقد وأكثر كآبة.

جربت نفسي في مشادات أخرى، وتشاجرت مرَّتين مع زميلة عمل ومع المدير، ودخلت في مشادة عنيفة مع شقيقتي ليلى.. أزعم أنني بالغت في استفزاز نفسي وإقناعها بأنني أكره خصمي، وهذا كي أوصل الاختبار إلى ذروته القصوى، وفي كل مرَّة كنت أكتشف أن موهبتي ليست حاضرة.

لم يحدث شيء لهن لحسن الحظ.. وهكذا كان عليَّ أن أكوِّن نظرية خاصة هي أنني أؤذي من يؤذي «هشام» على الأرجح.. هذه موهبة من نوع خاص بالتأكيد، وإن كنت لست فخورة بامتلاكها إن كانت هي سبب وفاة أبي.

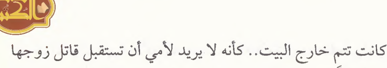
أما عن هشام، فقد كان يتعامل بدرجة بالغة من الندم والشعور بالذنب.. يوشك على أن يرتمي باكيًا ويصرخ:

ـ أنا قتلت ذلك الرجل الطيب! اشنقوني!

وتوقعت أن يكون أحمق إلى الدرجة التي أخشاها: «صفاء.. لا أستطيع الارتباط بكِ لأن جثة أبيكِ ستظل بيننا للأبد.. لن أنسى ما حييت أننا كنا السبب في وفاته.. الوداع».

كنت أتأهب لهذه العبارة، وأتأهب لرد منطقي مقنع، فإن لم يقتنع تأهبت لأن أنفجر فيه ـ ابن الـ... ـ وأغرقه بالشتائم، لكنه لم يقلها لحسن حظه.

فقط كان متحفظًا، وبالطبع كفَّ عن زيارة دارنا.. كل لقاءاتنا



كانت تتم خارج البيت.. كأنه لا يريد لأمي أن تستقبل قاتل زوجها والذي يتَّم بناتها.

الحقيقة أنه كان يعرف كيف يتصرف.. لا أعرف الطريقة السحرية التي ظل يضع بها القصائد في درج مكتبي، أو يضع زهرة حمراء على تابلوه سيارتي، سيارتي التي تقف أمام المكتب ومغلقة بإحكام.. كيف استطاع هذا الشيطان أن يفتحها ليضع الزهرة فيها ثم يغلقها ثانيةً؟

كنت أسأله عن الحيلة التي لجأ لها، فيبتسم في رقة ويرفض التفسير.

المرأة العاشقة تتصرف ببلاهة أحيانًا، أو هي تختار أن تتصرف ببلاهة لأن هذا يروق لها، لكن التفسير الجاهز الذي يريحني كان دومًا: «هشام يخفي سرًّا».. وهو سر غامض يمنحه سحرًا وهاجًا.

قدرت أن أمامنا نحو عام ثم نواصل خطة الزواج السابقة.. لن أخشى أن يفر أو تخطفه أخرى، فأنا أحكم لف خيوطي حوله، أشد بعضها وأرخي بعضها كأفضل لاعب ماريونيت في العالم.. لا خبرة لي في هذه الأمور، لكني وجدت أنني أجيدها ببراعة.. لا شك أننا نحن النسوة نولد بموهبة فطرية شبيهة بموهبة القطط في صيد الفئران.

لكن الأمور لم تكن لتسير بهذه البساطة كما تعرف يا كمال.. قلت لي إن اسمك كمال أليس كذلك؟ لم تقله؟ لا يهم. سأعتبرك كمال إلى أن أنهي قصتي.

* * *

توفِّي نائب المدير.. المهندس ثروت. عرفت هذا عندما ذهبت إلى العمل بعد إجازة ثلاثة أيام، ولم أتصل بهشام في غضونها. كان ثروت رجلًا سمجًا، ثقيل الظل، لكني لم أكرهه لدرجة أن أتمنى موته.. طراز الرجل الذي يعتقد أنه فاتن، وأن كل أنثى تخدع نفسها عندما تتظاهر بأنها لا تهيم به حبًّا. تُوفِّي في ميتة من تلك الميتات الغريبة التي بدأت تتكرر مؤخرًا.. لدينا مطبخ صغير في المكتب، وقد دخله ليعد لنفسه بعض الإسبريسو، فهو مُصرٌّ على أن أحدًا لا يجيد صنعه كما يريد.. بعد رُبع ساعة دخل العامل المطبخ ليجد جثة ثروت.. لقد صار هذا مملًّا بالفعل.. لم تعد هذه شركة، بل هي أقرب لغرفة إعدام.

لا داعي لقول إنه لا توجد آثار عنف، أو أي سبب واضح للموت.. كالعادة يقولون إنها نوبة قلبية، ويكتب الأذكياء عبارة «هبوط حاد في الدورة الدموية والتنفسية»، وهو تعبير سخيف لا يقول أي شيء.. بالضبط كأنك تقول إن سبب الوفاة هو مجيء الأجل.. كلام صحيح، لكن لا قيمة له.

«روضينا» سكرتيرة شابة رقيقة تعمل معنا، وكنت أرتاح لها، لكني كنت أشعر بالكثير من التحذلق في إصرارها على أن تكتب اسمها بهذه الطريقة.. تمسك بقلمك وتعدل اسمها وتنطقه بصوت عالٍ، بينما الكل يصر على كتابته «ردينا» أو «ردينة».. قالت لي روضينا وهي ترتجف:

ـ سبحان الله! قبلها بيوم بعد مشادته مع المهندس هشام، قلت لنفسي إن قلبه سينفجر!



هنا نظرت إليها متحفزة:

ـ هل تشاجر مع هشام؟!

ـ كان الصياح يصل إلى الطابق السفلي.. لم أسمع المهندس هشام يطلق هذا الكم من الشتائم من قبل!

رحت أراقب الجسد المسجى الذي يحملونه على محفة.. لقد بدأ عهد الرعب في الشركة.. هدى وثروت.. ثم ذلك الزبون الوقح صفوت.. لم يعد الأمر صدفة! تُرى كم من الوقت يجب أن يمر قبل أن يقرر مدير الشركة فضها؟ فليذهبوا إلى الجحيم.. المهم أن يكون هشام معي.

بالمناسبة، يمكن القول إن هذه الحادثة فارقة.. هذا رجل مات دون أن يغضبني، ودون أن أعرف أنه يغضب هشام!

ابتلعت ريقي في رعب.. بالفعل هشام يخفي سرًّا.

يمكن تعديل النظرية قليلًا لتكون: كل مَن يضايق هشام يموت.. هدى.. صفوت.. أبي.. ثروت.

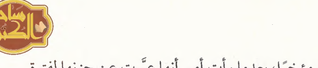
أليس هذا صحيحًا؟

هناك تعبير شعبي يقول: «اللي ييجي على فلان ما يكسبش»، ويبدو أنه ينطبق هنا حرفيًّا.. كل من ضايق هشام مات ميتة مرعبة!!

لكن، هل يمكن لهذا الهراء أن يغير مستقبلي؟ هل لهذه المصادفات الغريبة أن تجعلني أغير مسار خططي؟ بالطبع لا، وإلَّا لكنت أحمق الحمقى.

عندما عدت إلى البيت كنت غارقة في أفكاري السوداء هذه.

كان الوقت مساء، فتناولت العشاء الذي تركته لي أمي في المطبخ.. كانت الفتيات الثلاث جالسات مع أمي يشاهدن التلفزيون الذي تم



إطلاق سراحه مؤخرًا، بعدما رأت أمي أنها عبَّرت عن حزنها لفترة كافية.

ـ مساء الخير.

قلتها ودخلت غرفة نومي.

هنا تصلبت عند الفراش.. الأمر صار غريبًا بالفعل وأقرب للخطر...

هشام لم يزرنا منذ وفاة أبي.. إذن من أين جاءت قطعة الشوكولاتة الملفوفة بشريط مخملي أحمر هذه؟ ومَن وضعها على الوسادة؟ ربما تم هذا بالاتفاق مع واحدة من أخواتي، لكني كنت أملك يقينًا غامضًا في عظامي أن هذا لم يحدث.

* * *

هشام يخفي سرًّا.

أعرف هذا، وقد بدأت أتوتر فعلًا.. خواطر كابوسية جابت ذهني مرارًا.. رأيته ساحرًا شريرًا يقدر على الوصول إلى مخدعي، إلى وسادتي.. رأيته يحرق دُمى مسحورة تحوي شعيرات من رؤوس أعدائه.

سألته أكثر من مرَّة عن الحيل التي يضع بها أشياء عندي، فراوغ في الإجابة.. كان يحيل أي كلام مزاحًا. الحقيقة أنه لا تفسير هنالك سوى أنه استعان بأخواتي، وبرغم هذا لديَّ يقين داخلي مبهم أن هذا لم يحدث.

لقد أجريت تجربة صغيرة.. ناديت ثلاث الفتيات ليلى وسامية ومي إلى غرفتي، ثم عرضت عليهن قطعة الشوكولاتة، وأمسكت

بالمصحف، وطلبت من كل واحدة منهن أن تقسم على أنها لم تضع هذه الحلوى بناء على طلب من هشام.. الفكرة أنهن أقسمن.. جميعًا أقسمن.. أعرف أنهن لن يكذبن لدرجة القسم على مصحف.. هشام بالفعل يملك القدرة على الوصول إلى أي مكان في حياتي!!

لكن لن أرتكب خطأ عمري.

لن أتركه لمجرد شكوك غامضة تتعلق به.

أذكر ذلك اليوم الذي اصطحبني فيه إلى نادٍ ليلي هادئ، حيث الظلال والأضواء الخافتة تحرك الخيال.. موسيقى خافتة سمعتها في مكان ما، وذكرى عن مستقبل لم أعشه قَطُّ، لكنه ذكرى! لا أعرف كيف أصف لك هذا الشعور العجيب.

كنت متأهبة عاطفيًّا.. كنت أرضًا خصبة تنتظر البذرة التي سيزرعها فيها بكلماته.. سوف أنبت وأورق.. سوف أصير غابة تغطي الكون...

لكن كلماته كانت غريبة بعض الشيء:

ـ صفاء.. أشعر أنكِ لن تجدي راحة معي.. صدقيني.. قرار زواجنا قرار خطر.. ليس بهذه البساطة!

نظرت إليه في شراسة:

ـ ماذا تحاول قوله بالضبط؟ هل جاء وقت التنصُّل؟

ـ بالعكس.. لقد ازددت جدية.. وأريد أن أكون صريحًا معكِ.

ـ إذن، فلتصر صريحًا معي.. لقد حان الوقت.

أعرف أنك تخفي سرًّا يا هشام.. ويبدو أن الوقت قد حان.. البوابة توشك على أن تنفتح.. يقول وهو يتحاشى عينيَّ، ويقلب الشفاط في كوب العصير:

ـ أنا أهيم بكِ حبًّا.. لا أستطيع التخلي عنكِ.. وهذا التعلُّق يجعلني أتصرف من دون حكمة.. يجعلني أتخلى عن حياة العزوبة التي اخترتها لنفسي.. لنقل إنني أُغيِّر خطة حياتي بالكامل.

كلام يجمع بين التشجيع والتخويف.. أنا مسيطرة، أمسك بكل الخيوط كما أعرف عن نفسي، لكنه يلوم نفسه على أنني أقوده إلى المصيدة.. ما السبب؟ خطرت لي أفكار سوداء تتعلق برجولته.. لربما ارتباطه بأمه زائد ومرضي حتى إنه يشعر بأنه يخذلها لو تزوج أخرى.. لا أدري.. هناك رائحة مريبة في هذا كله.. لهذا يقول الغربيون: «أنا أشم فأرًا».. أنا أشم فيلًا!

لم يُعطِ تفاصيل أكثر، فقط قال:

ـ سوف تكونين معي في السَّراء والضَّراء ومهما عرفتِ عني؟

قلت في حذر:

ـ في كل شيء ما عدا أن تكون مصابًا بالجذام أو الدرن، أو تكون لصًّا، أو تكون لك عادات غير أخلاقية معينة لا أفهمها.

هنا بدا الألم على وجهه.. هذا التقلص الذي رأيته عدة مرَّات، ويقول إنها المرارة كل مرَّة.. توقف تنفسه، وغطى العرق جبهته، ثم مرت النوبة فجفف عرقه.. «أنا بخير لا تقلقي».. ومَن قال إنني قلقة؟ لقد عشت هذا السيناريو مرارًا، وفي كل مرَّة لا خطر ولا تفسير.

عاد يواصل التعليق على ما قلته:

ـ ليس الأمر كذلك.. اطمئني.

ثم رفع يده طالبًا الحساب، ولم يسألني إن كنت راغبة في البقاء أكثر.. وسرعان ما كنا ننطلق بسيارته عائدين إلى بيتي.. وفي هذه المرَّة

صعد معي في الدرج وقابل أمي، وقال لها إن الوقت قد حان.. لقد صار زواجنا واجبًا مُلحًّا.. ولم تعترض أمي كثيرًا. أنا قد انتصرت، لكنه انتصار غريب المذاق.. تُرى لماذا لا تتوهج النجوم وتُحلِّق الملائكة في أجواز السماء؟ ولماذا لا تلاحق الغزلان الفراشات؟ ربما لأن ذكرى وفاة أبي لم تطل عن عام، وربما لأن...

* * *

هكذا تم الزفاف يا كمال.. قلنا إن اسمك كمال أليس كذلك؟

المكان الذي اختاره لنا هو فيلًّا صغيرة من طابقين في أكتوبر، كان قد ابتناها على مدى عدة أعوام منذ عمل في الشركة.. هي على أطراف المدينة، يمكن القول إنها شبيهة بما كنت أحلم به.. وبالفعل جاء بأمه.

سافرنا لمدة خمسة أيام إلى الغردقة، وكانت أيامًا لا بأس بها، لكن تساؤلاتي بدأت تزداد.

كان هشام في الليلة الأولى متحفظًا.. خجولًا. وقد اندهشت لأن تحفظه جعله لا يبدل ثيابه أمامي أبدًا.. هو دائمًا بثياب الخروج أو المنامة.. عندما دعوته للاستحمام في حمَّام السباحة قال إنه يكره الماء بسبب خبرة طفولية سيئة.. هكذا هو من الطراز الذي يلبس الشورت والتيشيرت ويجلس على حافة حمَّام السباحة يشرب العصير.. لا يبلل قدميه أبدًا.

عندما عدنا بعد أسبوع العسل هذا بدأت أكوِّن انطباعي.

أمه لم تكن باللطف والرقة اللذين تكوَّنا كانطباع عندي.. هي مسيطرة، وأعتقد أنه يخشاها فعلًا.. صحتها مضعضعة فعلًا وتتنفس

بصعوبة بالغة، لكن شخصيتها بكامل لياقتها، ويمكن لشخصية كهذه أن تمارس رياضة العدو أو رفع الأثقال.. وكانت تعاملني بتحفظ مهذب، التحفظ الذي سيصير عدوانية واضحة عند أول بادرة.. هي إذن من طراز الأمهات اللاتي يتصارعن على ذكر القبيلة.. أنتِ ستأخذين ذكر قبيلتنا.. إذن فالموت لكِ.

الأمر الثاني هو أن الأم كانت تفضل الاعتكاف في غرفتها.. وفي معظم الأحوال كان هشام يحمل لها الطعام هناك. هناك طاهية وخادمة تترددان على البيت بضع ساعات يوميًّا، الأولى تعد لنا طعام الغداء، والأخرى تنظف غبار اليوم السابق وتفرش الأسرَّة.

مرت أيام أخرى، وجاء اليوم الذي ذهبنا فيه معًا إلى الشركة بسيارته كما تمنيت.. وهناك كان الجميع يعاملونني باعتباري الخبيثة التي فازت بقصب السبق.. الأبرع والأقدر والأجمل. لا شك أنني شعرت بغرور شديد، لكني في الوقت ذاته لم أكن مستريحة.. سعادتي غير كاملة.

روضينا قالت لي الشيء ذاته.. قالت إنني شاحبة غير سعيدة.. لا يتدفق ماء الهناء والحياة من وجنتي كأي عروس جديدة هانئة. قلت لها شيئًا عن نفسي المريضة التي تنال التفاحة ثم تتساءل عن جدوى هذا ولا تجدها حمراء بما يكفي.

في حالتي لم تكن هذه هي المشكلة، كانت المشكلة هي أنني لست موقنة أن ما في يدي تفاحة.. ربما هي شيء آخر؟

سوف أحكي لك كذلك قصة القط الممزق في الحديقة.. إنها مهمة لقصتنا.

هل تريد معرفة القصة؟ إذن دعني أخبرك أنني وجدت قطًّا ممزقًا في الحديقة.. انتهت القصة.. ممتعة أليس كذلك؟ حدث هذا يوم الخميس.. كنت أتفقد الأزهار عندما وجدت هذه الجثة المهلهلة.. هذا ليس قطًّا ميتًا، بل هو قِطٌّ ممزق.. هل هناك ذئاب تتسلل إلى هنا؟

عندما سألت هشام شحب وجهه، وبدا عليه الذعر، ثم قال لي بصوت مبحوح:

ـ لن يحدث هذا ثانيةً.

ما معنى هذا؟ ما الذي لن يحدث ثانية؟

أنت تعرف يا كمال ـ هذا اسمك أليس كذلك؟ ـ أنني قررت أن أعرف أين أنا بالضبط.. يجب أن أقوم بتفتيش البيت جيدًا.. ربما كان عليَّ كذلك أن أضع كاميرا لاسلكية في الحمَّام لهشام.. هذا تصرف غير أخلاقي، لكنْ للضرورة أحكام.. هناك لغز في جسده لا يريد أن يراه أحد، فما هو؟

إن قصتي توشك على الانتهاء يا كمال فلا تتململ.. أعرف أنني أطلت عليك.

* * *

في غرفتي رحت أفرغ الفيلم.. الفيلم الذي سجَّلته كاميرا الحمَّام.. على شاشة اللاب توب رحت أراقب الصورة المأخوذة من مكان مرتفع قليلًا حيث داريت الكاميرا وراء ستار الحمَّام.. لم أسمع عن امرأة تتلصص على رجل يخلع ثيابه من قبل، لكني لم أسمع كذلك عن رجل حريص على ألَّا ترى زوجته جسده أبدًا.. حتى وهو نائم يتدثر جيدًا بالملاءة، فلا أستطيع معرفة ما هنالك!

كان ينزع قميصه.. ثم فانلته الداخلية.. هنا فهمت جزءًا من السر: إنه يلف رباطًا من الشاش العريض حول أسفل صدره ويلتف حتى يغطي البطن كله، لكنه لن يستحم بهذا الرباط.. راح يفكه في حرص.. لقد ألصق أطرافه باللاصق العريض.

الرؤية بعيدة جدًّا، لكن يمكنني تثبيت الكادر، يمكنني أن أقربه قليلًا لأدرك أن هناك تشوهًا أسفل الضلوع.. كأن هناك حفرة عميقة تمت خياطتها، والتئام الجرح غير كامل، يُذكِّرك بحرق تم ترقيعه بلا نجاح.. هذه أقبح ندبة رأيتها في حياتي.. هشام يخفي سرًّا، وهذا السر هو أنه مريض جدًّا، أو أجرى جراحة مرعبة في وقت قريب.

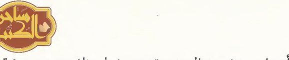
متى كان هذا الوقت؟ لقد تغيب فترة طويلة عن العمل في بداية عملي بالشركة.. هل كانت تلك هي الفترة؟

خليط مبهم من الإشفاق عليه والاشمئزاز منه والارتياح لأن هذا هو سره الوحيد.. عليه أن يخبرني بالأمر، وعليه أن يرى إن كنت سأحبه أم لا.

«سوف تكونين معي في السراء والضراء ومهما عرفتِ عني؟».

هكذا سألني قبل الزواج.. وقلت له وقتها إن شرطي الوحيد هو ألَّا يكون مصابًا بمرض عضال.. هل آلمه هذا؟ ألهذا تقلَّص وجهه؟

كنت جالسة أمام المرآة أصفف شعري عندما ظهر عند باب الغرفة.. كان يرتدي الروب ويتأهب للنوم.. كلمت صورته في المرآة قائلة:



- هشام.. أنا أعرف موضوع الجرح تحت ضلوعك.. ومندهشة لأنك لم تخبرني به!

توقف للحظة، وبدا كأنه لم يسمع.. رفع حاجبيه للحظة، ثم نزع الروب واندس في الفراش ولم يقل شيئًا.

ظللت أنظر إليه في صمت وأنا أواصل تصفيف شعري، وبعد لحظات اندسست جواره في الفراش وأطفأت النور.

تنفسه منتظم.. هل ضميره نقي إلى هذا الحد؟ لماذا فضل تجاهل المعركة؟

إي إي إي إي إي إي إي إي!

في الظلام...

هل هناك قِطٌّ حبيس في الفيلَّا؟!

الصوت يتكرر في إلحاح غريب.. نهضت في هدوء، وأنا أتحسس البساط تحت قدميَّ الحافيتين.. أحبس أنفاسي.. أتجه نحو باب الغرفة.. الصوت يتعالى.. أي أنني أدنو منه فعلًا.

إي إي إي إي إي إي إي إي إي!

الصوت آتٍ من الطابق السفلي.. لا شك.. بدأت أنزل في الدرج الخشبي وأنا أتحسس طريقي على الضوء الخافت القادم من «المصابيح الساهرة».. موقف مرعب لمن هي أوهن أعصابًا مني، لكنك تعرف يا كمال أنني ذات شخصية قوية متماسكة.

في نهاية الممر كانت تلك الغرفة التي لم أرها إلا مغلقة.. قال لي هشام إنها مخزن.. طبيعي أن يُحبس حيوان ما في المخزن.. لقد خُلق لهذا.. لكنني هذه المرَّة أرى أن الباب موارب.

في حذر دلفت إلى الداخل.. تلك الرائحة الكريهة! تحسست الجدار بحثًا عن ضوء.. هذه هي اللحظة التي تطبق فيها يد مخلبية على يدك كما تعرف، لكني لا أعبأ بهذه الأوهام الهستيرية.

كان هناك مفتاح كهربي عتيق.. كليك.. غمر الضوء المكان.

هي غرفة اتساعها خمسة أمتار في ثلاثة أمتار، وجدرانها مكسوة بالملاط، هناك حشد من الأثاث القديم وأكوام من الصحف وحقائب بالية.. لكن مصدر الصوت يأتي من...

القفص الصغير في ركن المكان.. هناك حيوان حبيس بالداخل.. لا شك في هذا وهو مصدر الأنين.

في حذر دنوت أكثر.. رأيته يحاول اقتحام القضبان، وكان ينظر في عينيَّ.. لا أعرف ما هو.. أقسم أنني لا أعرف.. هو في حجم قِطٍّ كبير، لكن وصفه عسير جدًّا، يمكن أن تصفه بالكيان.. الشيء.

فقط تعرف حقيقة واحدة: يجب ألَّا تسمح لهذا الشيء بالخروج من القفص.

ـ أطلقنا عليه اسم هاشم!

وثبت مترًا في الهواء لدى سماع هذا الصوت في الظلام، ثم تراجعت لأسقط بين ذراعي هشام.. هشام الذي يلبس منامته وهو حافي القدمين، وقد بدت القصة واضحة: لم يجدني جواره في الفراش، وخمَّن الباقي...

ثم إنه جلس على مقعد قديم مهشم متهالك وغطى وجهه.

سألته في رعب:

ـ ما هذا؟! ليس كائنًا بشريًّا، بل هو ليس كائنًا أعرفه على الإطلاق!

كان هشام يخفي سرًّا كما قلنا، وقد بدأ يحكيه لي، لكني لم أُصدِّق.. حتى اللحظة لا أُصدِّق.

* * *

هشام ـ هكذا قال لي في الظلام ـ وُلد بشيء أقرب لورم تحت الضلوع.. قال الأطباء إنه شيء يُدعى «teratoma».. يحوي عظامًا وأسنانًا وشعرًا.. هذا ما ظهر في صور الأشعة ومرارًا.. لم يحاول الخلاص منه إلا منذ عامين.

عندما عاد إلى البيت بعد الجراحة بذلك الورم المبهم في وعاء مليء بـ«الفورمالين»، استغرق فترة حتى يدرك أنه حي ويتحرك.. أمه أول مَن لاحظ هذا.

سألته وأنا أرتجف:

ـ هل تعني أنه كان توءمًا سياميًّا؟

قال كاسف البال:

ـ لا. هناك حالات ظل فيها التوءم السيامي حيًّا وحاقدًا على أخيه العملاق الذي استلبه حقه في الحياة، لكن هذا الورم لم يكن توءمًا سياميًّا، وإلَّا لرأى الأطباء قلبه النابض أو رئتيه.. كان كيانًا شريرًا مبهمًا له عقل.. يرى ويسمع ويفكر!!

بالواقع كان الكائن أقرب إلى شيطان ذي قدرات مذهلة.. كان يدخل من فتحات المصاعد، ويتسلَّق المواسير، ويدخل الغرف المغلقة، وكان قويًّا جدًّا...

ـ لا أعرف كنهه بالضبط، لكنه يُمثِّل الجانب الشرير في أعماقي وقد تحرَّر.

احتفظ هشام وأمه بهذا السر، ورُبِّي الكائن الكابوسي الذي سمياه «هاشم». لأسباب واضحة لم يجسر على التخلص منه.. وقد قرر هشام أنه لن يتزوج أبدًا.. طبعًا قبل أن يقع في حبائلي ويحبني.. ما عرفه هو أن الكائن يتطوع بإيذاء كل من يكرههم هشام ويفتك بهم، مخترقًا الحدود المادية أحيانًا.. هشام يعرف أنه تسلل إلى حمَّام هدى وقتلها.. لكن كيف عرف بيت هدى؟ يمكن تخيل ما حدث للذي مات في المصعد، ففتحة المصعد العليا تسمح بدخول شيء.. أو أبي الذي اختنق أثناء نومه، فهناك شرفة صغيرة في غرفته.. يمكن تخيل كيف هاجم ثروت في المطبخ.

ـ هناك كثيرون ممن غضبت عليهم أو اختلفت معهم ماتوا بلا تفسير.. هناك قصص لا تعرفينها.. أعتقد أن له ست ضحايا منذ تمت الجراحة.

لكن هناك أجزاء غير مبررة في القصة.. الهدايا التي كنت أتلقاها بانتظام من شيء قادر على الوصول إلى سيارتي أو وسادتي.

ـ بدا واضحًا مع الوقت أنه يحبكِ ويبعث لكِ إشارات وهدايا.. وبدأ يغار مني.. لقد صار خطرًا.

هكذا صار من الواجب أن يُحبس في هذا القفص لتحديد نشاطه، لكنه يخرج منه بسهولة تامة كلما أراد، كما فعل مع القط الممزق.. إنه كيان شيطاني.. هو الشر المجسَّد.. لا يمكن معاملته بشكل مادي.

هاشم يحبني؟! هاشم يشتهيني؟! هاشم يغار من أخيه بسببي؟! هشام يخفي سرًّا.. وهذا السر اسمه «هاشم».



كان هذا الشيء المخيف يتحرك في القفص.

قلت لهشام وأنا أرتجف:

ـ لو كان كلامك صحيحًا، فعلينا أن ندمر هذا الشيء.. لا بد من أن نحرقه أو نغرقه أو نكهرب القفص.. سنتصرف معه كما يتصرفون مع فأر مسعور.

ـ هو جزء مني.. لا أقدر على عمل ذلك.. ولربما أفنيت نفسي معه.. لا تنسي نوبات الألم.. هو قادر على أن يؤلم جسدي! هذا ليس حقيقيًّا.. سوف أصحو فجأة لأدرك أن هذا كابوس.

قلت في ثبات:

ـ هذا كائن مخيف.. وعليك أن تختار بيني وبينه.. سيكون هذا آخر يوم لي في بيت المجانين هذا!!

في الفراش همس هشام وهو يندس بجواري، بعد نهاية تلك المواجهة المخيفة:

ـ سوف أتخلص منه.. سأعرف كيف أتخلص منه.

وكانت هذه آخر كلمات قالها.

* * *

متى نهضت يا هشام؟ متى تركت الفراش؟

كان هذا هو الصباح، وكنت مرهقة مبعثرة بعد ليلة مليئة بالانفعالات.. لم يكن نومًا، بل هو أقرب لفقدان وعي.. وعندما نهضت لم تكن هناك.

رحت أبحث عنك، وناديت باسمك مرارًا...

ثم وقفت مستندة على الدرابزين ونظرت إلى الطابق الأسفل..



عندها رأيتك.. رأيت الجثة التي تلبس المنامة والتي سقطت من ارتفاع طابق، وعرفت أن العنق مهشم.. لقد دفعوك لتسقط من الطابق الثاني.

أسرعت أهبط في الدرج، وكان المشهد الذي رأيته هو نفس ما رأيته من الطابق العلوي، ولكن بشكل أقرب ولا يقبل الشكوك.. كنت آمل أن تتلاشى الرؤية عندما أقترب، أن أكون واهمة أو حالمة أو مخبولة.

ثم سمعت الصراخ.

هناك على أريكة في ركن المكان كانت الأم تجلس وتمسك بموضع قلبها.. لم تعد قادرة على النهوض، لكنها قادرة على الكلام بصوت مبحوح.

نهضت مسرعة نحوها، فقالت دون أن تنظر إليَّ:

ـ الأخ قتل أخاه!! أو اللحم قتل اللحم!! كنتِ أنتِ لعنة حطت على هذا البيت، وكنتِ مصيبة منذ البداية.. ما كان لهشام أن يتزوج.. أمثاله لا يتزوجون!!

لم يكن في صوتها هستيريا أو بكاء، كانت تتكلم كأنها تقرر حقيقة علمية.

ثم هتفت بنفس الصوت:

ـ الآن يجب أن تفري.. هاشم سوف يظفر بكِ لو بقيتِ.. إنه ليس في الغرفة المغلقة ولا القفص.. إنه طليق.. وصدقيني هو لا يريد قتلك.. يريد ما هو أسوأ!

كنت قد كوَّنت فكرتي عن الموقف، ووصلت إلى ذات الاستنتاج.. هذا البيت ليس لي لو أردت البقاء حية. فيما بعد سأبكي على هشام



بما يكفي، أما الآن فلا وقت سوى ارتداء ثياب الشارع والبحث عن مفاتيح السيارة.. الهرب.. لربما لو لجأت إلى مكان مغلق محصن باقي حياتي نجوت.

خلال لحظات كنت في حديقة الفيلَّا، وخلال لحظة كنت أدير محرك سيارتي الناعسة في مكانها منذ أسبوع.

دار المحرك، وانطلقت كالمجنونة عبر الشوارع شبه الخالية.

الأحداث تتدافع في ذهني، حتى فقدت القدرة على الفهم أو التفسير نهائيًّا.

فجأة، شعرت بذلك الشيء المقزز المبهم يتسلَّق على كتفي.. كان ينتظرني في المقعد الخلفي! لقد خمن أنني سأنتوي الفرار. رفعت يدي ودفعته.. لا يمكن فهم هل هذه كتلة من العضلات أم اللحم الرخو.. لا يمكن فهم هذا الشيء.. هو مقزز وثقيل الوزن وكفى.. هاشم يغازلني بعد ما قتل أخاه أو أباه أو وعاءه.. لا أدري بالضبط!! ثمة نقطة واحدة أعرفها؛ هي أنه لن يقتلني.. إنه يبثني غرامه لا أكثر.. وهو غرام يهون أي موت معه طبعًا.

أدرت المقود بسرعة نحو اليسار، ثم مددت يدي وأمسكت بالشيء بأقصى قوتي وطوحت به من النافذة.. وعندما بلغت نهاية الطريق ضغطت على الفرملة ونظرت إلى الخلف...

كان هاشم يزحف على الطريق.. للحظة يخيل لك أنه إنسان قزم بلا قدمين، أو هو عنكبوت، أو هو نصف قِط. ولم أتردد.. درت بالسيارة واندفعت نحوه بجنون من جديد، وسمعت شيئًا ينسحق تحت العجلة.

لا ترددي يا فتاة.. هذا كيان شرير، ومن الوارد ألَّا يموت.. درت من جديد وسحقته مرَّة أخرى.. عاودت الكرة مرَّتين.

ـ مت!! مت!!

ووقفت على مسافة وأنا ألهث وأتنفس في جشع.. السيارة تئن من فرط الجهد.. وهنا رأيت كلبين ضالين يهرعان نحو كتلة اللحم هذه وراحا يتنازعان على أخذ أجزاء منها.

لو أراد هاشم أن يوجد من جديد، فعليه أن يجمع بقاياه من أفواه الكلاب والغربان!!

كنت أبكي أخيرًا.. للمرَّة الأولى سمحت لنفسي بالبكاء.

هشام كان يخفي سرًّا.. وليتني لم أعرفه قَطُّ!!





بعد الجلسة

«لا أحب تحضير الأرواح.. سوف تكون هذه آخر مرَّة ألعب فيها هذه اللعبة».

سألته عن السبب، فقال:

ـ هذا لعب خطر.. اللعب على حدود عالمين يجب ألَّا يتداخلا أو يلتقيا.. نحن أطفال سذج، لعبنا مرارًا عند عتبة باب الغول، وكنا محظوظين لأنه لم يصحُ في أي مرَّة، لكن من يضمن أن يستمر الحظ الحسن؟».



الجو بارد بالتأكيد.

ربما كان السبب الحقيقي هو القشعريرة أو الانفعال.. أنت تعرف أن من يصابون بصدمة عصبية يرتجفون بردًا كأنهم مغطون بالثلوج.. ربما كان السبب هو البرد، وربما كان السبب هو التوتر.. هناك كذلك لمحة شؤم حقيقية.. لا ننكر هذا.

لقد كانت أمسية طويلة.

في بيت صديقنا صبري كانت تلك الجلسة.. الكوب المقلوب، ولوح الويجا، والظلام.. رائحة البخور وثلاثة منَّا يضعون سباباتهم على الكوب المقلوب ويحبسون الأنفاس، بينما واحد يراقب.

لماذا فعلنا ذلك؟

لم تكن لدينا طريقة أفضل لقضاء الأمسية من تلك الإثارة الناجمة عن استكشاف المجهول.. عن الدنو على أطراف أصابع أقدامنا من الحافة الفاصلة بين عالمين.. عن التلصص على ما يدور في الجانب الآخر.. أكثرنا متزوج ويعاني حالة ملل متقدمة..



أنا تركت زوجتي في البيت ووعدتها بألّا أتأخر وكانت هذه كذبة طبعًا.

كان الطلب الذي طلبناه غريبًا.. نريد استحضار روح السفاح الأمريكي «تيد باندي».

تحرك الكوب ببطء.. وأدركنا أن ما يحدث ليس وهمًا، وليس هو الـ«Ideomotor phenomenon» الذي تحدثوا عنه كثيرًا.. الحروف لاتينية، لذا يمكننا متابعة المحادثة بالإنجليزية.

«تيد باندي».. السفاح الأمريكي الوسيم الذي يعرفه كل مواطن هناك، والذي كان يقتل النساء بضربة على الرأس غالبًا.

هكذا دارت المحادثة.. وهكذا تكلمنا مع «تيد باندي» كثيرًا.. سألناه عن هوايته الغريبة، وعن ولعه بقتل الحسناوات، وطريقته في الخداع، إلخ.

طالت الأمسية.. طالت...

وعندما انتهينا قررنا أن نعود إلى ديارنا وشكرنا صبري.. لاحظ صبري أننا لم نصرف الروح بطريقة واضحة مباشرة، لكن الحقيقة هي أننا هواة، ولم نكن نعرف طريقة لصرف الروح سوى «انصرفي».. لم تكن هناك مشكلة لأننا جربنا هذه اللعبة مرارًا من قبل.

خرجت إلى الشارع المظلم البارد مع رامي وعمرو.

الهواء بارد.. بارد.. والبخار يتكاثف بلا رحمة. كنت ألهث بلا توقف.

أشعل رامي لفافة تبغ وسعل، وقال إن الأمسية كانت ممتعة. أعترف أننا استمتعنا بوقتنا، لكن شيئًا له طعم مرير ظل في حلقي..

لست مرتاحًا جدًّا.. لست في غاية السعادة.. ثمة شعور بالقلق يتتابني.. لا أعرف السبب.

وصلنا إلى ناصية الطريق، فقال رامي وهو يلوح بذراعه:

ـ أراكم غدًا لو عشتم!

لماذا قال هذا؟ لم أعرف، لأنه كان قد غاب في شارع جانبي يقود لبيته.

مشيت مع عمرو مسافة لا بأس بها. قال لي ويداه في جيبيه:

ـ لا أحب تحضير الأرواح.. سوف تكون هذه آخر مرَّة ألعب فيها هذه اللعبة.

سألته عن السبب، فقال:

ـ هذا لعب خطر.. اللعب على حدود عالمين يجب ألَّا يتداخلا أو يلتقيا.. نحن أطفال سذج، لعبنا مرارًا عند عتبة باب الغول، وكنا محظوظين لأنه لم يصحُ في أي مرَّة، لكن من يضمن أن يستمر الحظ الحسن؟

فكرت في كلامه.. بالفعل أشعر بنفور مماثل.

ما الذي يشعر به صبري الآن وهو في بيته؟ وقد كانت روح «تيد باندي» تعبث في المكان منذ ساعتين؟ ولكن، مَن قال إنها روح «باندي» فعلًا؟ حسب رأي المتدينين «هذه شياطين تعبث».. وحسب كلام المفكرين «هذه عقولنا الباطنة تتكلم».

مشينا بضع خطوات، ثم سألني عمرو عن خطتي للغد.. اليوم هو الجمعة.. الواحدة من صباح الجمعة، لكنك تعرف أننا بخطأ جغرافي مشهور نعتبر أنفسنا في الخميس.. قلت له إنني سأنام وأحاول أن أنسى.

أخيرًا وصلنا إلى بيت عمرو فدعاني للصعود.. قلت له إن الموعد لا يناسب سوى أمن الدولة، وحييته.

قال لي قبل أن يغيب بالداخل:

ـ خذ بالك من نفسك.

لماذا قال هذا؟ تبدو لي عبارة فيها حنان أنثوي لا داعي له.

ابتسمت وواصلت السير في الشارع المظلم البارد.. لماذا لا يوجد أحد على مرمى البصر؟

هل قرر الناس جميعًا النوم؟

عند كشك السجائر الموجود عند قارعة الطريق سمعت النباح الوحشي.. أجفلت.. رأيت كلبين أشعثين مخيفي الشكل يخرجان لي كأنهما قادمان من الجحيم.. تصلَّبت واقفًا محاولًا ألَّا أثير غضبهما أكثر، لكني وحيد، والشارع خالٍ، والمأزق مخيف.

تراجعت إلى الخلف والكلبان يحاصرانني ويزومان.

يا لها من ليلة!

وفجأة، سمعت رجلًا مسنًّا يصيح بالكلبين زاجرًا وهو يلوح بعصا صغيرة يزجيهما بها.. كان خفيرًا في بناية تحت الإنشاء.. واعتذر لي.. قال إنهما كلبان جبانان لا أكثر.

واصلت المشي وقلبي يتواثب.

كنت أمر جوار عمود النور الذي يلقي إضاءة خافتة، وفجأة رأيت ظلًّا يتحرك من مكان ما.. وثبت إلى الخلف، فرأيت رجلًا يخرج من خلف العمود وهو يلوح بشيء لامع في يده.. رجلًا رث الثياب له نظرة مجنونة.

أطلقت صرخة قصيرة.. هذه هي اللحظة إذن.. الليلة كلها تنذر بهذه اللحظة.. عندما لم نصرف روح «تيد باندي» كما يجب وقعنا في خطأ رهيب.. أعتقد أن كل واحد ممن اشتركوا في الجلسة سوف يلقى مصيرًا كارثيًّا الليلة.

لكن الرجل لم يتقدم نحوي.. لقد لوح بالشيء في يده وصاح:

ـ كله مكتوب.. كله مكتووووب!

وراح يرقص كأنه ثمل.. هنا فهمت.. هذا مجرد مخبول ممن احتضنتهم الطرقات.. ليس أخطر من قِطٍّ ضال.

ابتعدت عنه وأنا أنظر من فوق كتفي.. المشكلة هي أن بيتي بعيد، لكنه أقرب من أن أركب له سيارة أجرة.. وضع وسط سخيف.. ولو أردت سيارة أجرة فلن أجد.

عند ركن شارع جانبي رأيت ما بدا لي كرجل يضرب رجلًا فيسقطه أرضًا.. يجب أن أسرع المشي أكثر.. لا أجرؤ على التراجع أو الاتصال برامي أو عمرو ليساعداني.. سوف أصير سخرية القوم للأبد.. سيقال إنني جبان كفتاة صغيرة.

روح «تيد باندي» في كل شيء.. أعرف ذلك.

قال صديقي عمرو:

> «هذا لعب خطر.. اللعب على حدود عالمين يجب ألّا يتداخلا أو يلتقيا.. نحن أطفال سذج، لعبنا مرارًا عند عتبة باب الغول، وكنا محظوظين لأنه لم يصحُ في أي مرّة، لكن من يضمن أن يستمر الحظ الحسن؟».

يبدو أن هذه هي الليلة التي يتوقف فيها الحظ الحسن.



بيتي أخيرًا...

يبدو كواحة وسط الظلام.

هرعت أجتاز المدخل وأغلق الباب خلفي، ثم وثبت الدرجات حتى شقتي.. الأمان.. الهدوء.. سوف أقرأ القرآن طيلة الليل ولن أنام.. سوف أتصل بالرفاق صباحًا لأطمئن عليهم.

حنان.. أين أنتِ يا حنان؟

رحت أنادي في الشقة.. يبدو أنها نامت.. هذا ليس من عادتها عندما تكون وحيدة.. لقد أعدت لي العشاء.

دخلت غرفة النوم.. هذه قطرات دم.. بالتأكيد هي كذلك.. الجدار.. الفراش.. بحور من الدم.

من قال إن «تيد باندي» كان يقتل الرجال؟ «تيد باندي» كان يقتل النساء، وغالبًا كان يهشم رؤوسهن.. الآن أعرف أن الروح لم تنصرف عندما انتهت الجلسة.. لقد كنت على حق عندما توقعت كارثة.. رائحة الهواء الغريبة قالت كل شيء.. كانت الروح تنتظرني هنا في بيتي، ومن الواضح أنها قامت ببعض الأعمال قبل قدومي...

«من يضمن أن يستمر الحظ الحسن؟».



من أعمال د. أحمد خالد توفيق لدى دار الكرمة

أحمد خالد توفيق

في ممر الفئران

رواية



من أعمال د. أحمد خالد توفيق لدى دار الكرمة

الطبعة 18

الهول

أحمد خالد توفيق



من أعمال د. أحمد خالد توفيق لدى دار الكرمة

أحمد خالد توفيق

شَربة الحاج داود

الطبعة 11

مقالات عن العلم وشبه العلم

«سأعترف لك بشيء مخيف.. كل ما أقوله هنا سيظل سرًا.. أليس كذلك؟ في البدء بدأ القط يتوتر ويعوي.. يطلب الزواج.. كانت تحبه لأنه قطها، لكنه أثار أعصابها، وفي يوم خدرته و... واستأصلت رجولته!».

آخر باقة مُنتقاة من الوحوش، ومصاصي الدماء، والسَّفاحين، وآكلي لحوم البشر، والموتى الأحياء، والكائنات الفضائية، دفع بها د. أحمد خالد توفيق إلى النشر. ندعوك لقراءتها وقضاء ساعات من المتعة الصافية.



